A N W A R H A M E D

رواية
NOVEL

أنور حامد

والتيه والزيتون





والتيه والزيتون

والتيه والزيتون / رواية عربيّة
أنور حامد / مؤلّف من فلسطين
الطبعة الأولى، يناير، 2016





مكتبة كلّ شيء / حيفا

المؤسّسة العربيّة للدراسات والنشر
المركز الرئيسيّ:
المصيطبة، شارع ميشال أبي شهلا، متفرّع من جسر سليم سلام
مفرق الجامعة اللبنانيّة الدوليّة LIU، بناية النجوم، مقابل أبراج بيروت
ص. ب 5460-11، الرمز البريديّ 2190-1107، بيروت، لبنان
هاتفاكس 707891/2 1 961+
e-mail: mkpublishing@terra.net.lb
موقع الدار الإلكترونيّ: www.airpbooks.com

التوزيع في الأردنّ:
دار الفارس للنشر والتوزيع
ص. ب 9157، عمّان 11191 الأردنّ،
هاتف 5605431 6 962+ / 5605432 6 962+ هاتفاكس 5685501 6 962+
info@airpbooks.com

تصميم الغلاف والإشراف الفنّيّ:
محمد سيف ® عمّان، هاتف 95297109 7 962+
لوحة الغلاف: Gazelle Art / فلسطين.
الصفّ الضوئيّ: المؤسّسة العربيّة للدراسات والنشر / بيروت، لبنان
التنفيذ الطباعيّ: ديمو پرس / بيروت، لبنان

ISBN 978-614-419-627-4



أنور حامد

والتيه والزيتون





تنويه وتحصيل حاصل

هذه رواية ، كما ستقرأون على غلافها ، فهي إذن من صنع الخيال . لكن الخيال ما هو إلا إعادة تشكيل للواقع ، بعثرة تفاصيله ، والعبث بقوانينه . هذه حقيقة بديهية . والحقيقة البديهية الأخرى ، أن الراوي هنا ليس مرادفا للروائي ، ليس لاختلاف الاسم فقط ، ولكن لاختلاف الدور المنوط بكل منهما . الراوي ، منير حمدان ، هو جزء من الرواية ، يشارك في أحداثها ويقيم علاقات مع شخصياتها ويطلق أحكاما . أما الروائي ، أنور حامد ، فما هو سوى ناقل لما يجري بين الراوي وبقية شخصيات الحكاية ، هما إذن ليسا شخصا واحدا ، وإن تشابهت بعض ملامحهما وتقاطعت بعض الطرق في حياتهما ، فاقتضى التنويه ، عزيزي القارئ ، حتى لا تختلط عليك الأمور ، كما اختلطت على الذين من قبلك . أنا ، هنا ، كمؤلف للرواية ، لا شأن لي إطلاقا بسلوك أو آراء الراوي ، منير حمدان . أنا على الحياد ، أعزائي ، أترك شخصياتي على سجيتها . طبعا لي آرائي ، وقد تختلف أو تتفق مع آراء الراوي ، لكن ليس من المفروض أن أزج بها في الرواية ، ولا أفعل .

أفكار وسلوكيات الراوي تخدم السياق الروائي ، وهو هناك بأفكاره وسلوكياته تلك لأن دوره الدرامي يتطلب وجوده ووجود أفكاره وسلوكياته ، أما أنا ، كروائي ، فأنقل بحياد .

سيظن بعضكم أن هذه المقدمة «تحصيل حاصل» ، ومعكم كل الحق ، لكن هل هي ضرورية؟ لا أدري ، ربما ، وذلك بسبب وجود خلل في العلاقة بين الروائي من جهة ، والقارئ والناقد من جهة أخرى ، في العالم العربي ، فقد حصل أن حاول نقاد وقراء أن يناقشوني في أفكار وسلوك وأخلاقيات شخصياتي ، ويحاكموني عليها ، كما لو أنها أفكاري الشخصية ، وأنا هنا ، أمامكم أبرئ ذمتي . هذا لا يعني بأي حال من الأحوال أن افكاري الشخصية مختلفة ، قد تكون وقد لا تكون ، لكني لا أضعها في أفواه شخصياتي . . . ودمتم . . . .

- ١ -

- حدثيني عن نفسك .

لم أكن أعرفك ، لذلك توقعت جوابا عاديا مثل الأجوبة التي نتوقعها عادة من شخص نقابله للمرة الأولى .

- هوايتي المفضلة السباحة عارية على شاطئ حيفا في ساعات الفجر الأولى .

هذا كان أول ما تفوهت به ، وكان كفيلا بتجريدي من كل مجسات الحذر . هنا أحسست أن لا ضرورة لها ، يمكنني أن أتعرى أمامك ، بدوري ، من كل أقنعتي الاجتماعية ومستلزمات التواصل التقليدي ، فقد كنت سباقة لذلك .

بادلتك بوحا ببوح وجنونا بجنون ، أغدق أحدنا على الآخر بالمزيد من هذه الملامح النافرة ، حين استمعت إلى آخرها صرخت ضاحكة :

- مجنووووووون! أنا هون لازم ألقي سلاحي ، ما بقدر أجاريك .

ما تلا كان حديثا أقل جنونا ، دخل كل منا في عالم الآخر من أوسع الأبواب ، اختصرنا الكثير من مراحل التعارف

التقليدية ، وحين ارتشفنا آخر قطرات من قهوتنا كنا نحس بدرجة كبيرة من الإلفة ، رغم أن هذا كان لقاءنا الأول .

كما يليق بجنوننا التقينا ، في خلسة من القدر ، ضاربين عرض الحائط بالسيناريوهات المعتادة ، ساخرين من قوالب اللقاءات التقليدية ومظاهرها الزائفة . كنت قد خرجت من آخر تجربة لي مثخنا بالجراح ، بائسا ، يائسا ، أحاول قدر الإمكان تأجيل خوض تجربة جديدة خوفا من فشل جديد ، فمتطلبات جنوني لا يمكن أن يتقبلها هذا العالم .

كنا نجلس في مقهى صغير غير بعيد من ساحة باريس ، أو «ساحة الحناطير» ، كما كانت تسمى قبل أن يغيروا اسمها ، في محاولتهم لطمس الذاكرة والهوية .

كانت زيارتي الأولى للمدينة ، لقائي الأول مع نصفنا المستلب ، وكنت متهيبا من اللقاء . ماذا سأقول لهم قبل أن أبدأ قراءة قصائدي والمقاطع القصيرة المختارة من رواياتي؟ أنا لا أعد كلمة مكتوبة حين ألتقي قرائي ، أعتمد كثيرا على تبادل النظرات معهم والصلة الحميمة التي يخلقها هذا ، وكذلك إمكانية جس مدى تفاعلهم مع ما أقول ، وإن كانت هناك حاجة لتغيير الإيقاع أو حتى الموضوع ككل . كذلك أحب أن أتأمل ملامحهم أثناء الحديث وأجعلهم يحسون أكثر أنني أتحدث إليهم ، أجلس بينهم ، أعيش معهم اللحظة وأتوق لتفاعلهم . لا أحب الحديث ذا الاتجاه الواحد ، والقراءة من

ورقة معدة مسبقا ، لأنه يخلق شعورا من الاغتراب بيننا .

كنت قد أرسلت لي على فيسبوك رسالة تدعينني فيها إلى فنجان قهوة صبيحة الأمسية ، لأنك ، كما كتبت في الرسالة ، ترغبين بالتعرف علي قبل أن تستمعي لقراءاتي . تريدين أن تحسي بشيء من التميز وأنت تجلسين بين آخرين يستمعون إلي للمرة الأولى ، هذا ما كتبته في رسالتك .

لم يكن الموضوع مفاجئا ، ولم أجد فيه شيئا غير مألوف ، فكتيرا ما ألتقي قرائي وقارئاتي بشكل شخصي في المدن التي أزورها .

صمت ونظرات متبادلة ، ثم صمت وشيء من الارتباك . كان علي أن أبادر ، فأنا الأكبر سنا ، وكذلك فمن المفروض أني في مركز قوة ، فأنا الكاتب المعروف الذي سيقف على المسرح هذا المساء ويستمع إليه العشرات ، ثم يوقع لهم نسخهم من كتبه . أنت ، وعلى الرغم من كونك في منتصف العشرينات ، إلا أنك تملكين درجة من النضج وحالة من الثقة بالنفس لا علاقة لها بسنك ، وجرأة لم أخبر مثلها من قبل مع فتاة عربية في لقاء أول . إلى ذلك ، أنت ، كما أخبرتني ، قارئة شغوفة ، والقراءة عندك تجربة تفاعلية . قرأت معظم رواياتي ، واحدة منها شدتك أكثر من غيرها ، كما تقولين ، وأثارت عندك فضولا نحوي . حاولت حضور فعاليات سابقة لي في يافا ورام الله في العام الماضي ولكنك لم تتمكني ، ولذلك حرصت على أن لا

تفوتي زيارتي لمدينتك دون أن تلتقيني .

- بشوفك المسا .

- خلص؟ ما بدك توخديني جولة في مدينتك؟

- لا بلاش ، مرة تانية . روح إرجع على أوتيلك ، ارتاح ، وحضر حالك للأمسية .

لم ألح ، مع أني كنت أرغب باستبقائك . لفت هذا انتباهي ، كما لفت انتباهي حرصك على بتر اللقاء بهذا الشكل .

- ٢ -

لم أعـد للفندق حين غـادرتني بل توجـهت إلى مكتب صـديقي وناشـري صلاح الذي دعـاني للغـداء . وصلت قـبل موعدنا بسـاعـة لكنه لم يسـتغرب ، بل اسـتقبلني ببشـاشـته المعتادة .

– شربت قهوة؟

سـألني ، ولـم ينتظر الإجـابة بل توجـه إلى المطبخ وأعـد فنجانين من الإسبريسو . هو يعرف أني شبه مدمن عليها .

الكتب تحدق بنا من كل جـانب ، أعـمـال كـتـاب الداخل تحتل حيزا معتبرا على الرفوف : إميل حبيبي ، محمود درويش ، سميح القاسم ، وكذلك روايات ودواوين شعرية لكتاب عرب من المحيط إلى الخليج .

– شو حبيبنا؟ جاهز للأمسية؟

ضحكت

– أنا دايما جاهز ، برتجل في العادة .

– يعني مش محضر خطبة عصماء لأول لقـاء إلك بأهل حيفا؟

ضحكة أخرى .

- أبدا ، لازم أشوفهم ، أتأمل في وجوههم ، وبعدين بييجي الحكي بعفوية .

سيل المكالمات الهاتفية لا ينقطع : مكتبات توصي على طلبيات من الكتب ، كتاب ناشئون يستفسرون عن مصير مخطوطاتهم ، أصدقاء ومعارف ، وبين كل مكالمتين نتابع حديثنا .

- كيف كانت رحلتك؟ غلبوك في المطار؟

دخلت مطار تل أبيب (اللد سابقا) مستخدما جواز سفري البريطاني .

الطائرة المتجهة من زيوريخ إلى تل أبيب كانت مكتظة بيهود فرنسيين متدينين جاؤوا لقضاء عيد الفصح اليهودي مع عائلاتهم . قلت في نفسي ما أقوله عادة حين أجد نفسي وسط متدينين من أتباع أي ديانة «لكم دينكم ولي حياتي» . قبل أن تغلق أبواب الطائرة بدقائق جلست إلى جانبي صبية فرنسية ، يهودية هي الأخرى ، كما اتضح لاحقا ،لكنها علمانية ، كما اتضح بعد أول استفزاز من المتدينين .

العائلة التي تجلس أمامنا قررت أن «تأخذ راحتها» في الكراسي ، غير آبهة لراحة من يجلس خلفها . دفعت كراسيها فقفزت فجأة واصطدمت بركبتي وركبة «إزي» . حين عبرنا عن صدمتنا تنطح الرجل والمرأة أمامنا لإقناعنا أن هذا حقهم وأن

بإمكاننا أن نعمل الشيء نفسه ، أي دفع كرسينا إلى الخلف والتضييق على من يجلسون خلفنا . رفض كلانا ، مع أننا عجزنا عن إقناعهم بإعادة كراسيهم إلى وضعها الطبيعي . في النهاية اختار كلانا الضيق وألم الساق وأن لا ننجرف في لعبة «تعميم الضرر» . والغريب في الأمر أننا ، إذ انسجمنا في الحديث طوال الرحلة عن الفن والتسامح وأثر الإيمان الديني الأعمى على الشخصية الدنيوية ، الموسيقى واللغويات ، الفوبيا الاجتماعية والإنسان الإنسان ، فوجئنا في نهاية الرحلة أن تلك العائلة التي ضيقت علينا اشتكت من أننا كنا نتحدث طوال الرحلة ولم يستطيعوا النوم بسببنا .

ضحكنا من الأعماق على عبثية الوضع ، ثم افترقنا في مطار بن غوريون كغريبين . هي توجهت إلى صف الإسرائيليين ، وأنا توجهت إلى صف «الغرباء» .

هي ارتدت وجهها الآخر ، واستدعت لغتها الأخرى ، واختفت في لحظات ، متابعة رحلة سلسة إلى منزل عائلتها في مكان ما من بلدي ، وأنا دخلت في دوامة التاريخ والسياسة والصراع على الحق في تنفس الهواء المشبع بأنفاس أجدادي وزفرات ألمهم .

دخلت مطار تل أبيب مستخدما جواز سفري البريطاني ، فهل خلع ثوبي الفلسطيني والاستجارة بامتيازات تتيحها الجنسية الأوروبية التي حصلت عليها مؤخرا سيجعل الأمور

أسهل؟ أبدا! في البداية كان علي أن أخوض معركة مع ذاتي لإقناعها بارتداء جلدي البراغماتي : في النهاية أنا بصدد دخول معركتين ، إحداهما كبيرة والأخرى صغيرة . المعركة الكبيرة هي الإصرار على حقي في دخول بلدي ، وهو حق يحلم به الملايين من أبناء وطني ولا يحصلون عليه . أما المعركة الصغيرة فهي : هل أصر على الإعلان عن هويتي ودفع ثمن ذلك؟ في النهاية اخترت تجنب المواجهة من أجل كسب معركتي الكبيرة . سأدخل بلدي ، وإن بجلد سائح بريطاني . لن يكون سهلا إقناع موظف الأمن في مطار بن غوريون ، الذي سيقرع اسمي العربي كل أجراس الإنذار في داخله .

– هل هذه زيارتك الأولى إلى إسرائيل؟

– لا .

– كم مرة زرتها؟

– مرات عديدة .

– هل لك عائلة هنا؟

– لا .

– لماذا تكثر من زيارة إسرائيل إذن؟

– أنا صحفي وهذا جزء من عملي .

– هل أنت في مهمة صحفية؟

– نعم .

– ما هي؟

- إجراء أبحاث لفيلم وثائقي أعده .

أخذ جواز سفري وغادر . انتظرت ربع ساعة ، ثم جاءت امرأة ثلاثينية ذات شعر قصير أحمر حاملة جواز سفري . كان وجهها مربدا ، ونظراتها عدوانية .

- بتعرف عربي؟

- آه طبعا .

- طبعا؟ كيف؟ من وين؟

- أنا عربي . مش شايفة اسمي؟

- وين انولدت؟

- في الأردن .

- شو هدف الزيارة؟

- أنا صحفي وأعد لفيلم وثائقي .

- شو يعني تعد؟ شو رح تعمل في إسرائيل بالزبط؟

- أنا في طور الأبحاث .

- رح تشوف ناس يعني

- أكيد .

- فلسطينيين؟

- وإسرائيليين وسامريين .

- سامريين كمان؟ ليش؟

- الفيلم عنهم .

- إستنى شوي .

ربع ساعة أخرى ، ثم جاء رجل أمن ثالث ، يتحدث العربية بطلاقة سابقته نفسها لكن دون لكنتها العبرية .

– زيارة للأهل؟

– لا . شغل .

يدورون حول نفس النقطة ، أما أنا فيجب أن أفوت عليهم الفرصة . لو عرفوا أن لي عائلة في الضفة الغربية لما سمحوا لي بالدخول باستخدام جواز السفر البريطاني ، وجوده بحوزتي سيعيق قليلا قدرتهم على تقييد حركتي ، وهذا لا يرضيهم . يريدون من كل فلسطيني دخول البلاد باستخدام هويته المحلية ، إن كان حائزا عليها ، حتى ولو كان بحوزته جواز سفر أوروبي .

– ما إلك أهل هون؟

– لا .

– وين رح تسكن؟

– في فندق طبعا .

– وين؟

– في القدس ، وفي حيفا ، وفي رام الله .

– يعني رح تروح عالضفة؟

– أكيد .

– مين رح تشوف؟

ثم بدأت الأسطوانة من جديد . لفت انتباهي أنه يتحدث العربية مثلي تماما ، ودون أدنى لكنة . سألته :

- كيف بتحكي عربي هيك؟

ابتسم ولم يجب ، بل تابع استجوابه .

- شو إسم جدك؟

- قادر .

- قادر؟

- نعم .

- معقول؟

- ليش مش معقول يعني؟

منذ حصلت على جواز السفر الأوروبي أصبحت أتحدث مع ضباط الأمن الإسرائيليين مع شعور بالندية ، وودعت حالة الرعب التي كانت تسيطر علي حين كنت أدخل إلى الضفة الغربية عن طريق الجسر مستخدما هويتي الفلسطينية . الآن لا أخشى أسئلتهم وتحقيقهم ، أطلق لانفعالاتي العنان ولا أحاول السيطرة على مشاعري ، مع أن وضعي في جوهره لم يختلف كثيرا . ما زال بإمكانهم منعي من دخول بلدي ، لكنني الآن أحس أن ورائي حكومة قوية ، لن تتركني لقدري لو أصروا على ممارسة ساديتهم كما يفعلون مع بقية الفلسطينيين .

جاء رده على تساؤلي غير متوقع ، حتى مع كونه يتحدث العربية بهذه الطلاقة ، فالموضوع يتجاوز اللغة .

- هذا كفر ، إنت مش مسلم؟

أخذتني الصدمة ، تأملت ملامحه مرة أخرى ، أسمر

البشرة وعيونه سوداء توحي باحتمال كونه عربيا من أبناء البلاد . ولكن أليس هناك يهود يمنيون ومغربيون ومن كل الجنسيات العربية الأخرى؟ لماذا لا يكون واحدا منهم؟

- ما في إسم قادر في الإسلام ، هذا من أسماء الله الحسنى .

لا يمكن! يعرف أسماء الله الحسنى أيضا؟

أخفيت تفاقم صدمتي بابتسامة .

- إسم جدك عبدالقادر ، صح؟

من أنت يا هذا؟ هل درست مع اللغة العربية التي تتحدث عاميتها الفلسطينية بهذا الإتقان الثقافة الإسلامية أيضا؟ ولم لا؟ هو رجل أمن في النهاية ، ولا بد أنه خضع لتدريب مضن حتى يستطيع أن «يضيع» بسهولة بين الفلسطينيين .

- صحيح ، عبد القادر اسمه .

أدخل اسم جدي في جهاز الكمبيوتر وأنا أتظاهر باللامبالاة بينما توتري يتفاقم . بماذا سيبوح عني اسم جدي الذي لم ألتق به في حياتي؟ وهل سيكون في بوحه تهمة كافية لأن تحجب عني شرفة منزل عائلتي وعناق والدتي ولقاء أصدقائي؟ هل ستذهب كل خططي وبرامجي أدراج الرياح لمجرد أني بحت باسم جدي؟

- وين شنطك؟

جاء صوته أخيرا .

- لسة ما استلمتها .

ذهبنا معا لاستلام أمتعتي ، ثم قال لي :

- إفتح لي الشنطة الكبيرة لو سمحت .

هل كل هذا بسبب اسم جدي؟

فتحت الحقيبة .

- شو هاي الكتب؟

- كتبي .

- كم نسخة؟

- ما بعرف ، يمكن عشرين

- من الكتاب نفسه؟

- من الكتاب نفسه .

- ليش؟

- هذا كتابي ، أنا المؤلف .

ركز نظراته في وجهي بفضول كأنه ينظر لشخص آخر الآن

- إنت كاتب؟

- نعم .

- شو بتكتب؟

- روايات .

- صحيح؟

سأل مبتسما وقد أصبح في لهجته شيء من الود .

- نعم .

- وهاي النسخ رح تبيعها؟

- نعم ، رح أوقعها للقراء .

- وين؟

- عندي أمسية في حيفا .

- معك بوستر أو أي إشي عليه التفاصيل؟

أخرجت الإعلان عن الأمسية وناولته له .

- ممكن أحتفظ فيه؟

لم أسأل عن دافعه لهذا ، فهو رجل أمن في النهاية .

- تفضل .

- شكرا .

ثم أغلق الحقيبة ، ناولني جواز سفري بعد أن ختمه ، وقال : موفق ، إقامة ممتعة في إسرائيل .

حين خرجت إلى سيارة الأجرة التي كانت بانتظاري تنفست الصعداء وقلت في نفسي : لقد كسبت معركتي الكبيرة . ليسمها إسرائيل أو الواق الواق ، أنا الآن أتنفس هواء بلدي .

- يلا؟

قال صديقي صلاح بعد أن نهض عن مكتبه .

- بدي أغديك سمك .

- يا سلاااام!

قلت بفرحة حقيقية .

- فيه مطعم لطيف إسمه الصياد رح يعجبك .

وصلنا المطعم ووقفت عند مدخله مبهورا : من شرفته رأيت الجزء الأكبر من المدينة ، الميناء ، الشوارع ، غابات الكرمل . أغمضت عيني واستنشقت جرعة مضاعفة من الهواء .

- صورني ، صورني دخيلك .

أعطيت الهاتف لصديقي ، وقفت والمدينة والميناء تحتي ، التقط لي عدة صور . تأملت المشهد مرة أخرى ، لم أكن لأشبع منه . ثم دخلنا .

جلسنا إلى طاولة بجانب النافذة ، هذا كان طلبي ، فلا أريد أن أرفع عيني عن المشهد أثناء الغداء والسمر . بعد كأس العرق الأول بدأت أسترخي وأسلم نفسي لحالة وجدانية شكلتها مشاعري المتداخلة : ها أنذا في حيفا ، في حضن الكرمل ، أستنشق أنفاس الصنوبر وأسمع وشوشات البحر . إلى جانبي يجلس صديقي الذي ألتقيه للمرة الأولى لكني أحس أني أعرفه منذ الأزل . هو نصفي المشطور قسرا ، كما هم أهل هذه المدينة المغتربة عن بحرها . هو بيتي الذي تركت بابه مفتوحا واندفعت إلى قدري . كانت أحاديثنا تدور بسلاسة لم أعهدها في نفسي . مع كل كأس عرق جديد وحكاية جديدة تجود بها الذاكرة ، كانت جذوري تمتد وتتغلغل بشكل أعمق في المكان ، وتسيطر علي رغبة مستحيلة بأن أجمد اللحظة ، هي مثل حلم لم أرد أن أستيقظ منه .

- ٣ -

الغريب أنني لم أستغرب من هذا الانهمار الوجداني الذي داهمني . كان لقاءنا الأول ، لكنه لم يبدأ بالتعارف والمجاملات . أولى العبارات التي تفوهنا بها كانت بوحا حميما . هل يعقل هذا؟ لماذا أحسست من أولى كلماته كأننا نتابع الآن حديثا قطعناه قبل سنين طويلة؟ أنا أعرفه ، قرأت معظم رواياته . لم تكن شيئا خارقا بالمفهوم الفني ، قرأت روايات أفضل لكتاب عرب ، وحتى لفلسطينيين . لكنها كانت أكثر من روايات بالنسبة لي ، ربما كانت رحلة إلى عالمه الداخلي ، أكثر الجزئيات حميمية في شخصيته ، تفكيره ، سلوكه كرجل ، كإنسان . حين كنت أقرأ يوميات الفتاة المراهقة في إحدى الروايات لم أصدق للحظة أن رجلا رسم ملامح شخصيتها وصاغ كلماتها . كان الصوت أنثويا بامتياز ، وكذلك الخطوات . عنده إطلالة مذهلة على عوالم المرأة الداخلية . أنا قارئة ممتازة ونشطة . أقرأ أربعة كتب في الشهر على الأقل ، وألتهم معظم الروايات الجيدة التي تصدر في العالم العربي . لم أحس أن كاتبا ، رجلا ، توغل في أعماقي كامرأة إلى هذه

الدرجة . أحسست أنه يعريني . أن تقرأني كاتبة ، امراة ، فليس في هذا مأزق ، أما أن يدخل رجل إلى المساحات الحميمة في داخلي فهذا مربك . أثار فضولي منذ الرواية الأولى ، أضفته على فيسبوك ، وبدأت في التهام كل نصوصه القصيرة ، ثم انتقلت إلى صوره . واحدة منها أسرتني ، كانت أكثر من مجرد صورة ، كانت مرآة إلى عالمه الداخلي ، كرواياته . لا بد أن صديقتي مها ستسخر مني لو كانت تتابع خواطري . هي لا تؤمن إلا بالتجربة الحسية . لا يثيرها رجل إلا إذا تجسد أمامها ، بصوته وابتسامته ، برائحته ، وقبل كل شيء بإمكانية لمسه . تسخر دائما من صديقاتنا المعجبات بجورج كلوني أو غيره من الممثلين الوسيمين . صديقها ليس وسيما جدا ، لكن له حضورا قويا ، في المقهى كما في السرير ، شخصيته مرحة ويملك حس دعابة قويا ، أحاديثه تضحكها ولمساته تثيرها . كيف لها أن تفهم أن تثيرني صورة رجل يكبرني بثلاثين سنة ويقيم في قارة أخرى؟ كنت أنتظره في مقهى غير بعيد من ساحة باريس . جلست إلى طاولة على شرفة المقهى قبل موعدنا بدقائق . أطل مبتسما في اللحظة التي نظرت باتجاه المدخل ، كانت الساعة تشير إلى الواحدة والنصف بالضبط . لوحت له وابتسمت ، توجه إلى الطاولة مبتسما بدوره ، وقال : شو؟ كأنه يستأنف حديثا قطعناه لتونا حين دخل الحمام . ابتسمت مرة أخرى ودعوته للجلوس . كان أول ما تفوه به شيئاً عادياً

جـدا ، بل تافـه . هو أول شيء يتـفوه به كل من يتـعـرف على شـخص آخـر للمـرة الأولى . لا أثر للإبداع الذي توقـعـتـه منه ككاتب .

– حدثيني عن نفسك!

هل خانك إبداعك يا رجل؟ خذ إذن : –هوايتي السبـاحة عارية في ساعات الفجر الأولى على شاطئ حيفا . . . يا إلهي! لا بد أني جننت! هذا الجنون الذي أمارسه فعـلا على شـاطئ حيفا لا يعرف به أي من أفراد عائلتي أو أصدقائي ، باستثناء مها طبعا ، التي تبوح لي بدورها بأسرار غرفة نومها أولا بأول . لماذا أحسست أنه الشخص الذي أريد أن أبوح له بسري هذا؟ لم يبـد عليـه أي استـغراب ، بل على العكس ، بدأ بمجاراتي بهـذا البـوح الحـمـيم ، والحديث عن جنونياته . بعـد الارتطام الأول بدأت أحس بالدوار . أصـابني ارتبـاك مـفـاجئ . كـيف يمكن أن ننتقل من هذه النقطة إلى مستويات الحديث العادي؟ حاولنا ، ولـم ننجح . بدا الأمر سخيفا . من هذه النقطة إما أن نتـمـادى في الجنون ونقـفـز مـبـاشـرة إلى السـرير ، هكـذا بدون مقدمات ، أو نفترق . داهمني عقلي فجأة ووجهني نحو الخيار الثـاني . قـررت المغادرة ، حـاول استـبـقـائي ، رفضـت ، لـم يلح . سنلتقي مرة أخرى في المساء ، لكننا لن نتحدث على ما أظن ، أو سـيكون حـديثـا من طرف واحـد . هو سـيـقـرأ نصـوصـه وأنا سأسـتـمع إليه مع آخرين . سـتكون بيننا مـسافة وعيون كـثيرة

تشـاركني النظر إليـه . سـأكـون في أمـان . سـأتأمله عن بعـد . فضولي نحوه تضاعف بعد لقائنا الأول ، وإثارتي وصلت درجة خطيرة على مقياس التهور .

- ٤ -

وصلت القاعة مبكرا رفقة مضيفي وبدأت باستقبال الحضور واحدا واحدا . فرح غامر يسيطر علي وألفة تسكنني وأنا أصافح الضيوف وأتبادل معهم عبارات المجاملة بسلاسة لم أعتدها . في تلك اللحظات أدركت أكثر من أي وقت مضى فداحة خسارتنا ، و خسارتهم . حصل الكثير منذ أن شقونا نصفين ، نحن همنا على وجوهنا بين مخيمات اللجوء ومدن الأنظمة ، وهم بقوا في مواجهة تحديات مستحيلة : البقاء على قيد الحياة وتجنب الاندثار الثقافي . ما أسمعه الآن من أحاديثهم يشي بأنهم نجحوا إلى درجة كبيرة . هذه اللهجة «الحضرية الفلسطينية» ، القريبة إلى اللهجة اللبنانية ، التي تذكر بالقرب الجغرافي ، أسرتني . طبعا لم يفتني حضور العبارات العبرية في أحاديثهم ، لكن الخط الفاصل واضح بين متطلبات ومسوغات الشخصيتين . لم يكن المأزق هينا حين أسدلت الستارة ووجدوا أنفسهم وحيدين في مواجهة المجهول . رد الفعل العفوي والطبيعي لا بد أن يكون التقوقع ، لحماية الذات من اقتحام الغريب . ثم ، تصحو في اليوم التالي فتجد نفسك بحاجة إلى الخبز وبناء مسكن جديد وإرسال أطفالك

إلى المدارس . تخرج إلى العالم الواسع فتجده قد ضاق عليك ، ضاق حد الاختناق . وتجد الحراس يتحدثون غير لغتك ، وينظرون إليك بكراهية . تخطو أولى الخطوات أو تحاول أن تخطوها ، فتفاجأ أن الشارع لم يعد ملكك وحدك ، وأن هناك من يحصيها عليك . تبدأ جولة البحث عن مخرج .

- يلا تفضلوا عالمنصة .

تأخذ مكانك إلى جانب الشاعر الطيب الذي سيقدمك ، وسيدة ستقرأ مقتطفات من رواياتك . تتأمل الوجوه بابتسامة صامتة ، يتأملونك بفضول محبب ، ثم تتدفق العاطفة على شكل كلمات مرتجلة . أتحدث عن فرحي بلقائهم وجها لوجه بعد أن كانوا بالنسبة لي تاريخا وفقدانا وهوية شقت نصفين ، أسعد برؤيتهم يتجسدون ملامح وابتسامات وأحاديث تسر القلب ، بلهجة محببة لم آلفها من قبل .

أتابع الارتجال حتى النهاية . لا أريد أن أنظر إلى نص مكتوب . أريد أن أبقي عيني تجول بين وجوههم ، تتواصل مع نظراتهم ، تقيم حوارا مع انفعالاتهم . ثم أقرأ فصلا قصيرا من روايتي الأخيرة ونفتح باب النقاش .

في نهاية الأمسية بدأ بعض الحضور يطلبون توقيعي على نسخهم وتبادلت أحاديث ودية مع كل منهم .

- بتوقع لي أنا كمان نسختي؟

رفعت رأسي ونظرت إلى مصدر الصوت الذي بدا مألوفا .

تأملت وجهه ، ملامحه أيضا مألوفة . يبدو أني فعلت ذلك بحيرة لفتت انتباهه .

– مش متذكرني؟

بذلت مزيدا من الجهد ، لكني لا أتذكر الوجوه التي تمر بي بشكل عابر بسهولة .

– لحقت تنسى؟

قال مبتسما .

– وين التقينا؟

– في المطار .

نظرت إليه بتوجس . ما الذي يجري؟ ماذا يريد هذا هنا؟ هل يتبعني؟ هل وضعوني تحت المراقبة؟

– شو؟ ما بدك توقع لي؟

ولم لا أوقع له؟ لماذا لا يكون رجل أمن مهتما بالروايات؟

– بوقع لك طبعا . شو الإسم؟

– جمال أبو سالم .

انتفضت . رفعت رأسي إليه ، تأملت ملامحه مرة أخرى . لا بد أن الارتباك كان باديا علي .

– شو اللي فاجأك؟

– لا ولا شي .

– مستغرب إنه ضابط أمن يكون مهتم بالروايات؟ أنا قارئ جيد ، وبكتب كمان .

– لا مش مستغرب من هذا .

– ولا من شو؟

– ولا شي ، تفضل . نسختك موقعة وشكرا لحضورك الأمسية .

تناول نسخته ، تأمل في الإهداء ، ثم تابع حديثه :

– إذا بتحب تسمع رأيي في الرواية ممكن أعزمك على فنجان قهوة بعد أكم يوم . أعطيني رقم تلفونك .

ما هذا الذي يجري؟ تأملت ملامحه بشكل أفضل . كيف غاب عني أنه عربي؟ نطقه للعربية لا يمكن أن يكون ناجما عن إجادته للغة تعلمها . وكذلك ملامحه . نعم ، هناك يهود عرب ، ولكن هذا فلسطيني ، ليس يمنيا ولا عراقيا ولا مغربيا . فلسطيني الأب والأم والثقافة ، يدرك تماما الفرق بين «قادر» و«عبد القادر» ، ويستخدم معارفه المتقدمة هذه في خدمة جهاز الأمن الإسرائيلي .

شردت لفترة على ما يبدو بعد انصرافه .

– مالك؟

رفعت وجهي مرة أخرى ، بدهشة سارة هذه المرة ، ورأيتها .

– ولا شي .

قلت مبتسما .

– مين هذا اللي كان يحكي معك ونرفزك؟

– نرفزني؟

- كتير . لسة آثار النرفزة مبينه عليك . تيجي معي نشرب قهوة بمحل؟

كنت مرتبطا بدعوة إلى العشاء من منظمي الأمسية ، ولم يكن هناك مجال لأن أدعوها معي .

- طيب إنبسط بشوفك بعدين . كنت رائع ، عفوي وبسيط ، وخفيف دم كالعادة .

ابتسمت : كالعادة؟ انتي شفتيني قبل هيك؟

- لا ما شفتك شخصي غير اليوم الصبح ، بس أنا متابعتك من زمان ، شو نسيت؟

- لا ما نسيت ، أنا باقي هون كمان كم يوم ، وما رح أفوت قهوتك .

غادرت ، أما أنا فتابعت أحاديثي مع ضيوف الأمسية ، ثم خرجت مع مضيفي وحوالي عشرة رجال وسيدات إلى مطعم بحري للعشاء .

ـ ٥ ـ

أقف خلف النافذة في غرفة الفندق المطلة على صنوبر الكرمل ، أناجي الشجرات الشامخة كلا على حدة ، أستجديها التاريخ والحكايات . أين ومتى وكيف ولماذا؟ أسألها عن الغربة ، غربة من؟ من رحلوا أم من بقوا؟ غربة المدينة والبحر والأشجار؟ غربة العائد عبر معادلات التصالح البرغماتي وعناد الحنين والوجع الباقي؟ أهبط بنظري مع انحدار الكرمل ، أتأمل البيوت المتناثرة هنا وهناك . من يسكنها الآن؟ وبماذا تبوح لسكانها الشرفات في الأمسيات؟ هل يسمعون في سهرات الليالي وشوشات قادمة عبر الزمان من سهرات غابرة؟ هل تتردد أصداء همسات وضحكات وأغنيات؟ ثم تأخذني نظراتي التائهة إلى البحر . كم من الحكايات تختزن أمواجه؟ وكم هي البصمات التي تركها التاريخ على رمال شاطئه؟ أضواء الميناء تتلألأ من بعيد ، هي أضواء تنتمي إلى الراهن ، بعسفه وجنونه وغربتنا فيه . السفن أيضا لها ملامح زمن آخر ، غير ذاك الذي شهد مثيلاتها تجوب البحار بخيرات المكان .

كانت الأمسية في المطعم البحري عامرة بفرح اللقاء

وخيرات البحر ، والويسكي الذي حملنا ، أنا ، العائد محملا بالحنين والفضول ، وهم الباقون يحرسون المكان والهوية ، حملنا إلى الزمن المبتور وأعادنا إلى فصول جديدة .

– بصحة الكاتب الجميل العائد إلى وطنه .

– بصحة حيفا ، الوطن والأهل والذاكرة .

وتدور الكؤوس ، ومعها الأحاديث ، ثنائية وجماعية :

– أنا كل ما احتجت لميكانيكي بحط حالي في السيارة وعلى نابلس . تصوروا ، عملوا لي صيانة للمرسيدس وغيروا قطع وصلحوا فيها أشياء ، وكل اللي دفعتهم ٥٠٠ شيكل .

– هذا غير الكنافة النابلسية اللي ما إلها مثيل .

– الناس هناك غير ، بتحس كإنك ضيف عند الميكانيكي والبقال وصاحب المطعم ، مش زبون .

ويستمر الغزل بالنصف المبتور من القلب . على الضفة الأخرى من نهر الدموع كل شيء جميل . جميلة لسعات البعوض في ليالي الصيف ، فهلوات التجار الذين يرون في القادمين مشروع صفقة وأرباح . أما المسميات التي تحمل معنى اللوم والتقريع والتغريب «عرب إسرائيل» ، «عرب الـ٤٨» ، «عرب الشمينيت» ، فتبتلعها الريح والمودة التي تغفر كل شيء . ألسنا الرابحين في هذه المعادلة؟ يفكرون . ألم نعانِ من اليتم على مدى تسعة عشر عاما؟ ألم نكن وحيدين تحت رحمة التاريخ والعبث؟ تباركت الهزيمة التي رممت الشرخ ، ولو

كان ذلك بالدموع والكبرياء المسفوح وانتحار الأمل الباقي . هذا صوت لن يخرج إلى العلن ، فوعي الشعارات وضمير المزايدات لن يجيزه ، وكذلك جوهر الحقيقة . الحقيقة أن المأساة ساوت السليب بالأسير ، من ارتقى إلى الآخر ، ومن غرق في أحزان الثاني؟ هذا ليس السؤال الذي يتردد في ثنايا الروح الهائمة في فضاءات الغربة ، هي وجدت متنفسا وأنيسا لوحشتها ، وفضاءات جديدة ، دُفع ثمن باهظ لها لكن اليتيم تنفس هواء جديدا . أكل الكنافة في نابلس وسهر في ملاهي القاهرة وطرب في أمسيات جرش . كل هذه الملذات المحرمة أقبل عليها بنهم ، لا تكدر فرحته شوائب الحقيقة والثمن الذي ندفعه جميعا لذلك ،إلا فيما بعد ربما ، حين يذكرنا مسلسل المآسي المستمرة ، من جنين الى اليرموك ، بأننا ما زلنا داخل القفص ، ومن هو خارجه وقع أسير قفص آخر . نحن نسرح ونمرح داخل قفص كبير ، مفاتيح أقفاله بيد الغريب .

دق جرس التلفون في الغرفة ، نظرت إلى ساعتي فوجدتها الثانية فجرا . غريب ، من يطلبني في هذه الساعة؟

- ألو .

- شو ما نمت لسة؟

فاجأني صوتها .

- إنتي؟

- ما توقعتني ، صح؟

لم أتوقعها فعلا ، كانت مشاغل الأمسية والعشاء الذي تلاها كفيلة بأن تنسيني ذلك اللقاء القصير غير بعيد من ساحة باريس ، وإن كان صوتها احتفظ بإلفته في ذاكرتي ، والدهشة التي سادت أجواء اللقاء لم تزايلني . عرفت صوتها للوهلة الأولى .

– إنزل .

– وين؟

– أنا تحت في الاستقبال .

– خير؟

– إنزل ، مفاجأة .

ارتديت ملابسي على عجل ، وقبل أن أغادر الغرفة رن الهاتف مرة أخرى .

– معك مايوه؟

– معي .

– جيبه معك .

غريب! لا أظن أن بركة السباحة في الفندق ، أو في أي مكان آخر ، متاحة في هذه الساعة .

كنت أتأملها وهي تقود سيارتها «الغولف» الحمراء عبر شوارع حيفا النائمة . هي ربما في الخامسة أو السادسة والعشرين ، شعرها خروبي طويل ينسدل على كتفيها بكسل ، بشرتها صافية ووجهها يخلو من أي أثر للمساحيق . ملامحها

طبيعية تماما كما بساطتها وعفويتها في التعامل معي في أول لقاء لنا .

– شو قرأت في وجهي؟

– شو قصدك؟

– ما إنت كنت تتأملني ، إنتو الكتاب بتألفوا قصص عن ملامح الناس .

ابتسمت .

– لا أنا ما بألف قصص ، أنا ألتقطها من الحياة وبتصرف فيها .

لم تعلق .

– وين رايحين إحنا؟

– عالبحر .

سألت مستغربا : في هالوقت؟

أجابت : هو هذا الوقت اللي ما بيكون فيه عالشط حدا .

سألت مازحا : ليش ما لازم يكون حدا؟ شو بدك تعملي فيي؟

قالت ضاحكة : ما تخاف ، عليك الأمان .

صمت قصير ، ثم أضافت : إنت بتنسى بسرعة شكلك . مش قلت لك إني بسبح بدون مايوه؟ بدك أتعرى قدام غرباء؟

لم أنس طبعا ، لكني لم أكن قد أدركت أنها لم تعد تراني غريبا ، رغم قصر الوقت الذي قضيناه معا .

السيارة تنهب الطريق والبحر على يميننا ، لكننا لا نتوقف . موسيقى جاز مطعم بألحان شرقية تسيطر على أجواء السيارة في سكون الليل . نبتعد عن المدينة . لعلها تريد شاطئا غير مطروق حتى في النهار لضمان كونه خاليا في هذه الساعة من الليل .

تنحرف بالسيارة يمينا ، نتوغل على الشاطئ ، نتوقف وتطفئ المحرك .

– إنت بدك تسبح بمايوه ولا مثلي؟

ضحكت .

– أنا مش أقل منك جنون .

– طيب يلا إشلح .

– المي مش باردة؟

– باردة طبعا ، بس منعشة ، بتلسعك في الأول وبعدين بتتعود عليها .

نزلت من السيارة وخلعت بلوزتها القطنية البيج ، لم يكن تحتها سوتيان . تخففت من حذائها الرياضي وخلعت بنطالها الجينز وسروالها الداخلي (الكيلوت) . كانت تقوم بهذه الحركات بعفوية واسترخاء . ربما عزز شعورها بالأمان أنني لم أكن أحدق بجسدها .

وضعت ملابسها على مقعد السائق وركضت باتجاه البحر .

– يلا تعال إلحقني .

ألقت بجسدها بين احضان البحر ، وصرخت بمرح ، ربما من

لسعة الماء البارد . ثم نادتني مرة أخرى :

- يا زلمي وينك؟ بدك تظل تتفرج علي؟

خلعت ملابسي بدوري ثم لحقت بها .

وصلت الماء ، عاينته بقدمي بحذر في البداية ، كان باردا .

- ما بيصير هيك ، لازم ترمي حالك في المي دفعة وحدة .

- رح تصيبني سكتة قلبية من المي الباردة .

ضحكت : ولا رح يصير لك إشي ، على مسؤوليتي . هات إيدك .

ناولتها يدي وسحبتني إلى الداخل .

- إنتبهي ، أنا ما بسبح منيح ، مش مفروض أدخل جوا كثير .

- ما تخاف ، انا معك ، ما رح تغرق .

نظرت إليها ، وهمست : أنا ابتديت أغرق فعلا .

أضاءت ابتسامتها الظلام من حولنا .

- يا ويلي .

قالت هامسة .

تواطأ البحر والليل والأدرينالين ، هممت باحتضانها ، ثم تراجعت في اللحظة الأخيرة . نحن هنا نمارس الجنون واللعب ولا يفترض أن نتجاوز ذلك . نحن نعيش لحظة شعرية ولا يفترض أن نحولها إلى نثر عادي .

نظرت إلي .

– إنت مش أقل مني جنون .

– إنتي مش أقل مني إبداع . هذا الشكل من الجنون ما بيطلع إلا من شاعر .

ابتسمت بخفر .

– إنتي شاعرة؟

– بكتب أشياء ، بس مش شاعرة ، لا ، وإن كنت أعشق الشعر وأعيشه .

بدأ الفجر يتسلل ببطء إلى ليلنا المفعم بالمرح .

– يلا نرجع قبل ما تطلع الشمس .

أعطتني منشفة ، جففت جسمي وهي كذلك ، ارتدينا ملابسنا ثم أخذنا مقاعدنا في السيارة واتجهنا عائدين إلى الفندق .

أوقفت السيارة أمام مدخل الفندق وقالت : يلا روح نام .

– وإنتي؟

– أنا اليوم عندي دوام ، رح أوخد حمام وأشرب قهوة وبعدين أروح عالشغل دوامي بيبدأ بكير اليوم .

قلت بعفوية : طيب ليش ما توخدي حمام عندي في الغرفة ونفطر سوا في الفندق وبعدين تروحي عالشغل؟

نظرة مترددة ، ثم حسمت أمرها : لا بلاش . قاومنا الإغراء حتى الآن ، ما بنضمن نستمر في المقاومة .

ضحكت بارتباك ولم ألح .

وضعنا النقطة على السطر الأخير في فصل الجنون هذا بقبلة على الوجنة ، ثم انعتقنا : أنا إلى نعاسي ، وهي إلى يومها الحافل .

- ٦ -

استيقظت على رنين الهاتف ، فتحت عيني بصعوبة ثم أغمضتهما . لم أكن متحمسا لرفع السماعة . كم ساعة نمت يا ترى؟

- ألو .

- صباح الخير .

لم أتبين هوية صاحب الصوت . كنت في حالة نعاس وإرهاق كفيل بأن ينسيني اسمي .

- مين؟

- جمال .

من هو جمال هذا؟

- برضه مش ذاكرني؟

- معلش التقيت ناس كتير في هاليومين .

- مبارح وقعت لي روايتك .

- وقعت لناس كتير .

صمت وجيز ، ثم : يعني لازم أقول لك ضابط الأمن في المطار؟ ما بدي يرتبط إسمي عندك بهالشغلة .

شعرت بانقباض . لا تريد أن يرتبط اسمك بعملك؟ غريب! لماذا اخترته إذن؟ هل تخجل منه؟ هل تشعر بالإحراج؟

– أهلا جمال .

– قرأت الرواية في ليلة واحدة . جميلة ، شدتني .

– شكرا ، سعيد إنها أعجبتك .

– شو رايك نشرب قهوة مع بعض ، أو بيرة إذا بتحب . مرتبط بعد الظهر؟

حاولت أن أتذكر إن كنت مرتبطا ، أضغط على ذاكرتي الكسولة كي تسعفني ، بلا جدوى .

– شو قلت؟

– أحكيلك بصراحة لسة صاحي من النوم ومش واعي تماما . ما بعرف إذا مرتبط ولا لا .

– ماشي ، صحصح على راحتك ، بتصل فيك بعدين .

ثم وضع السماعة . ماذا يريد مني هذا؟ لماذا علي أن ألتقي ضابط الأمن الذي حقق معي في المطار؟ وهل كونه عربيا يمنحه امتيازا؟ بالعكس ، هو عربي ومع ذلك يمارس مهنته بمنتهى الإخلاص ، بل ويستخدم امتيازه هذا ومعرفته بالثقافة العربية والإسلامية ليكون أكثر فعالية بالتنكيل بي وبغيري . لماذا علي أن أقبل دعوته لشرب القهوة أو البيرة أو أي شيء؟ لماذا أتعاطى معه أصلا؟

الهاتف يرن مرة أخرى . وبعدين فيكم! إنتظروا حتى أشرب القهوة على الأقل .

– شو صحيت؟

هذه المرة أسعدني صوت المتصل ، ورسم على شفتي ابتسامة .

– أهلا ، لسة من شوي .

– نيالك ، أنا في الشغل ومش قادرة أفتح عيوني .

– لسة مطول الدوام؟

– لا باقي ساعتين .

– منيح بتروحي تنامي وترتاحي .

– لا ما بدي ، بدي أمر عليك أوخدك على حي وادي النسناس .

يا سلام! هذا ما كنت أحلم به . جولة في المدينة مع شخص يعرفها ، يسكنها . وأين؟ في حي وادي النسناس! وهل أستطيع أن أرفض العرض؟

– طيب موافق ، مع إني متضايق عشان بسبب لك إرهاق وقلة نوم .

– لا ما يهمك ، بنام بعدين ، أنا وقتي معي ، إنت وقتك محدود هون . ما تتغدى ، أنا عازمتك عالغدا بعد الجولة .

أنهينا المكالمة ، ودخلت إلى الحمام محاولا استعادة شيء من نشاطي بحمام بارد .

خرجت من الفندق أستطلع المنطقة المجاورة : مركز تجاري إلى جانبه ، دخلته ، لا شيء ذا بال . هذه المراكز التجارية متشابهة في كل مدن العالم ، حتى الماركات التجارية هي نفسها في دبي ولندن وحيفا وعمان . لا هوية تربطها بالمدينة . المقهى : ستاربكس . مطعم الوجبات السريعة : ماكدونالدز . متجر الثياب : مانغو!

لم أمكث طويلا في المركز التجاري ، خرجت أتجول في الشوارع القريبة . لا شيء يذكر بحيفا الأحلام . مقاه ومطاعم ومتاجر ومنازل تشبه مثيلاتها في تل أبيب أو أي مدينة إسرائيلية أخرى . أين حيفا؟ أين حيفاي؟ أتأمل في وجوه المارة ، لا أتبين ملامح تساعدني على التأكد من هويتهم . أصيخ السمع فلا أسمع سوى العبرية . أهرب إلى البحر . هو وحده لم يغترب ، زرقته وأمواجه احتفظت بملامحها ، وشوشاته لم تفقد سحرها ، وإن كانت سفنه غيرت قبطانها .

من على رأس التلة ، خلف فندق «دان بانوراما» الذي أقيم فيه ، أراه بوضوح . أسرح في زرقته . كان الجو صافيا ولون مياهه لازورديا ، ساحرا . أستطيع أن أتوه في لانهائيته إلى الأبد . يهدمون البيوت ، ويقتلعون أشجار الزيتون ، كل شيء كان شاهدا على الحكاية يحاولون إلغاءه ، إلا البحر! يقفون عاجزين أمام جبروته . كيف يمكن أن يسرقوا الأمواج؟ وهل يستطيعون اغتيال الأزرق؟ هو هناك وسيبقى ، شاهدا أبديا .

في جولتي الأولى على شاطئه أراني مضيفي منزلا لعائلة فلسطينية ما زالت صامدة رغم الضغوط والإغراءات . المعمار العربي وبصمات التاريخ تتحدى الأساطير ، هناك ، في جوار الموج .

حين أرى البيوت العربية القديمة أحس بدفء في قلبي ، ينتشلني من صقيع الغربة . كيف خطرت ببالها تلك اللفتة؟ جولة في وادي النسناس! كأنها تقرأ أفكاري .

سأعود إلى الفندق لانتظارها في الاستقبال . لم أستطع بعد الحصول على شريحة محلية لهاتفي ولا يمكن الاتصال بي إلا على رقمي البريطاني ، وسيكون ذلك مكلفا للطرفين .

جلست أنتظرها في الاستقبال . تأملت ملامح الفتاة التي أحضرت لي القهوة . هل هي عربية من بنات المدينة؟ هل أسألها؟ كيف؟ هل أحدثها بالعربية؟ ولو لم تكن عربية كيف سيكون رد فعلها؟ ربما ردت بعدوانية . لا أريد هذا الآن . ثم ، ما يعنيني إن كانت عربية أو يهودية؟ هي مهذبة ، أحضرت فنجان القهوة وابتسمت وهي تضعه على الطاوة أمامي . علاقتي بها هي علاقة نزيل الفندق بالنادلة ، وهي نادلة لطيفة ، سواء كانت يهودية أو عربية .

- كم فنجان قهوة صرت شارب من الصبح؟

انتشلني صوتها من خواطري .

وقفت مبتسما ، وتبادلنا قبلة على الوجنة . قبلة واحدة ، لا

قبلتين ، هذا يضفي على الأمر شيئا من الحميمية . على أي أساس؟ لا أعرف ، لكن الزمن لم يكن عاملا ذا صلة منذ لقائنا الأول . عمر معرفتنا المباشرة لا يتجاوز يوما واحدا ، لكن عمق صلتنا لا يقاس بالساعات ، بل باللفتات الحميمة والأحاديث المغرقة في خصوصيتها . لست مهتما بتحليل الوضع ، سأترك الأمور تسير بعفوية .

- هاي أول فنجان ، خليني أطلب لك واحد .

- لا بلاش ، خلص قهوتك إنت وخلينا نروح .

- يلا خلصت أنا . مستعجل أشوف وادي النسناس .

ابتسمت ، نهضنا واتجهنا نحو سيارتها .

- وين بدك نبدأ الجولة؟ نتمشى في الشوارع أولا ولا أروح مباشرة على مكتب إميل حبيبك؟

ضحكت .

- شو عرفك بإعجابي فيه؟

- ول يا زلمي ، مرة تانية ، مش قلت لك أنا متابعتك منذ الأزل؟

مرة أخرى زغرد شيء في داخلي . من يستطيع أن ينكر الفرح باهتمام الآخرين به؟

- طيب ، أول خلينا نزور حبيبنا وبعدين بنكمل الجولة .

- حبيبك لحالك ، أنا مش كتير معجبة فيه .

- ليش؟

– طبعا روايته الرائعة ما بقدر ما تعجبني ، لكن شخصيته السياسية مخيبة للآمال .

– كيف؟

– يعني كان طول عمره شيوعي حتى النخاع ، وممكن أقول حتى ستاليني . بعرف ناس من الحزب كانوا يحكولي إنه ممارساته كانت أبعد ما تكون عن الديمقراطية ، وفجأة لما غورباتشوف قال : والآن مسموح الحكي! فجأة وجد لسانه وصار ينتقد «الأقفاص»؟ قريت كتابه «عالم بلا أقفاص»؟

– لا لسة .

– إقرأه ، ما رح يعجبك ، أنا متأكدة .

– شوفي أحكيلك ، أنا عندي قدرة على الفصل بين السياسي والمبدع .

– نيالك .

قالت بشيء من السخرية .

دخلنا حي النسناس وبدأت أنظر مبهورا ، أتنقل بعيني على الجهتين ، لا أريد لشيء أن يفوتني .

– رح نتمشى في الشارع وتشوف كل إشي ما تخاف .

قالت مطمئنة وكأنها تقرأ افكاري .

أوقفت السيارة ونزلنا .

– يلا تفضل .

أومأت مشيرة إلى مدخل حديقة .

دقات قلبي تتسارع وأنا أنظر إلى أشجار الحديقة ، ثم أنتقل بعيني إلى بيت حجري صغير ، بدا مهملا .

– هون كان يشتغل صاحبك .

أصغي بانتباه لعلي أسمع صوته الجهوري يلقي بتعليماته لسهام داوود ، مساعدته . يحضرني وجهه الذي تختلط في ملامحه السخرية والتجربة والشقاء . التقيته في بودابست ، وبهرني حضوره . لم يكن يبتسم كثيرا ، لكنه كان يرسم الابتسامة دوما على شفاه الحضور . سخريته لاذعة ، في الحديث كما في الكتابة .

– وين سارح؟ شو هالحب الصوفي هذا؟

– كيف بدي أكون في حضرة إميل حبيبي وما أسرح؟

– طيب يا سيدي ، إسرح على كيفك . بدك أصورك؟

– طبعا .

التقطت لي صورا أمام البيت ، على الشرفة ، وفي الحديقة .

خرجنا من الحديقة وتابعنا الجولة . كنت أتوقف عند كل متجر صغير وبائع خضار ، أشم عروق الزعتر وأحاول التقاط أحاديث الناس منتشيا بلهجتهم المحببة . هذا هو وادي النسناس ، كما هو ، ملامحه لم تتغير ، بيوته القديمة ، دكاكينه ، حتى ملامح الناس فيه ، كأن ما حدث في المدينة لم يصله . هنا لا أحس بالغربة التي أحسست بها في محيط

الفندق . هنا أحس أنني في حيفا فعلا ، حيفاي .
رائحة الفلافل تسللت إلى أنفي .
– مش قلتي بدك تعزميني عالغدا؟
– صحيح .
– أنا بدي أتغدى فلافل ، هون .
– معقول؟!
تساءلت مستنكرة .
– بدي أتغدى هون ، فلافل ، أنا أعشق هذا المكان .
– كنت بدي أعزمك على سمك .
– لا بلاش السمك ملحق ، خليني أوكل فلافل في وادي النسناس .
ابتسمت .
– طيب ، بسيطة هاي .
طلبنا ساندويشات فلافل ، كنت آكل بشهية لفتت انتباهها .
– يعني بدك تقنعني إن الفلافل هون أطيب من فلافل بلدكم؟
– ما بعرف . بس هذا مش فلافل ، هذا فلافل وادي النسناس .
– طيب صحتين .
تابعنا الجولة بعد أن انتهينا من الأكل واقفين أمام المطعم

الصغير . كنت أتوقف عند كل متجر ، أمام كل بيت ، تحت كل شرفة . أنصت لأحاديث الناس بشغف . كنت مسحورا ، وهي تتابعني بابتسامة حينا وبحيرة في حين آخر .

عدنا إلى السيارة .

- وين أوخدك؟

- معلش رجعيني عالأوتيل .

نظرت إلي بخيبة أمل .

- خلص ، شبعت مني؟

سألت بعتاب .

- لا أبدا . بس بدي ترتاحي ، ما نمتي الليلة وأكيد نعسانة وهلكانة . أنا باقي هون كمان أكم يوم رح نلتقي أكثر .

عدنا إلى الفندق ، توقفت بسيارتها في شارع جانبي ، وأطفأت المحرك . لم تكن لديها نية بالعودة إلى البيت وتعويض ما فاتها من نوم الليلة الفائتة .

- بدك تيجي معي عالأوتيل؟

نظرت إلي وغمزت : إذا ما عندك مانع يعني .

ارتبكت قليلا : لا أبدا ، بالعكس .

ترجلنا ، واتجهنا نحو الفندق ، أمسكت بيدي ، ضغطتها قليلا ، وصلت الرسالة .

اتجهنا إلى المصعد ، ما إن أغلق الباب حتى وقفت قبالتي وبدأت تقترب بوجهها من وجهي ، ثم بحركة مفاجئة أطبقت

بشفتيها على شفتي . تبادلنا قبلة طويلة محمومة قبل أن يبلغ المصعد الطابق الرابع عشر . فتح الباب ، أمسكت بيدها وركضنا نحو الغرفة ، فتحت بابها بسرعة واندفعنا نحو قدرنا . أكملنا من حيث توقفنا . كان بنا ظمأ وجنون ، كنا عائدين لتونا من رحلة دامت منذ الأزل ، جسدين غريبين تائهين في منطقة انعدام الوزن ، اصطدما في الفراغ فاشتعل الكون . . .هنا وقع البيغ بانغ الكوني ، وهنا نبتت أولى بذور الحياة .

كنت أتوقع أن تعتليني ، كان زمام المبادرة بيدها منذ اللحظة الأولى ، لكنها لم تفعل . استلقت على السرير بما ظننته استكانة الجسد ، لكني كنت مخطئا . في اللحظة التي اعتليت جسدها استعادت زمام المبادرة . طوقتني بذراعيها وعصرتني ، انصهر جسدانا في أتون الرغبة . كانا يعزفان سيمفونية مجنونة ، حركاتها كلها خارجة عن النص ، مرتجلة ، عنيفة ورقيقة في آن . تدحرجنا على السرير ، تبادلنا عصا المايسترو والسيمفونية تمضي بخطى مجنونة نحو الذروة . تاتاتاتا تاااااا تاااااا تااااااااا تااااا تاااااا ااااااا .

- مجنووووووووووووون

قالت ، بعد شهقتها الأخيرة ، وانفجرت بالبكاء .

قبلت عينيها ، ارتشفت دموعها .

لم أسأل عن سبب بكائها ، فهل كنت أتوقع غير ذلك؟

- بديش تسافر .

ابتسمت بمرارة .

– جد بحكي .

– كيف؟

– بدون كيف ، تسافرش وخلص .

– طيب سافري إنتي معي .

– أنا ما بترك حيفا .

يا لغبائي ، فعلا ، كيف أطلب منها أنْ ترحل؟ يكفينا من رحلوا .

– طيب كيف ما أسافر؟ شو أعمل هون؟

– خلينا نجيب بنوتة ، وإقعد ربيها ، وإكتب .

– وشو أشتغل هون؟

– وهو هذا مش شغل؟ أنا بشتغل وانت بتظل تكتب ، بتتفرغ يعني .

ضحكت .

– شو مش عاجبك؟

– كيف ممكن ما يعجبني؟ . يا ريت نقدر نفصل العالم على مقاسنا .

– بنقدر .

– طيب ، بنقدر .

قالت بعصبية : توخدنيش عقد عقلي ، إنت مش مقتنع .

لم أكن أريد أن نخرج من الحالة الشعرية تلك إلى عالم الأسئلة العملية والترتيبات الاجتماعية .

قبلت شفتيها وقلت : خلص بنناقش الموضوع بعدين .

أحطتها بذراعي وصمتنا . كنت أسمع تردد أنفاسها لكني لم أكن أقرأ أفكارها .

رن جرس الهاتف .

_ ما ترد .

تأخرت في الطلب ، كنت قد اختطفت سماعة الهاتف وقلت : ألو .

- مساء الخير .

عرفت صوته هذه المرة ، وإن كنت لم أرتح لسماعه .

- أهلا جمال .

- شو ، نخرج نشرب بيرة الليلة؟ كثير حابب أناقش معك الرواية .

نظرت إليها ، كانت عيناها تتابعاني بفضول ، وتتساءل : مين؟

- إسمع ، خليها لبكرة ، الليلة مشغول .

- طيب ، أمر عليك بكرة الساعة ٦؟

- ماشي .

قلت ، ووضعت السماعة .

- مين هذا؟

- بعرفوش .

قالت مستنكرة : كيف بتعرفوش؟ لسة معطيه موعد .

- والله ما بعرفه معرفة شخصية ، هذا ضابط أمن في المطار .

نظرت إلي بقلق : ضابط أمن؟ شو بده منك؟

- إجا عالأمسية ووقعت له رواية ، شفتيه بظن .

- هو هذا؟ بس شو بده منك؟

شرحت لها الوضع ، لم ترتح له وزادت هواجسها في قلقي .

- خلص طنشه ، بلاش تشوفه .

- لا أفضل أشوف شو بده ، بلاش يعمل لي مشكلة في المطار وأنا خارج ، مش ناقصني .

نظرت إلى الساعة .

- إسمع بدي أتصل بأهلي أقول لهم إني عند صاحبتي وأنام عندك . عندك مانع؟

أجبتها بقبلة . أخرجت الهاتف من حقيبتها واتصلت بوالدها . قالت له إنها كانت تسهر مع صاحبتها وتريد أن تبيت عندها هذه الليلة ، ولم يمانع .

- أول كذبة أكذبها بسببك .

قالت ضاحكة .

- ولسة ياما رح تكذبي .

جاريتها في الضحك .

لم تكن عندي مشكلة أخلاقية مع الكذب ، هذه الأخلاقيات هي في مستوى أدنى من الحب في منظومتي الأخلاقية ، ويبدو أنها توافقني في هذا .

- تروحي ناخد كاس في البار؟

- لا بلاش .بكرة عندي دوام .

في تلك اللحظة لم أكن اعرف في أي اتجاه نسير . لم تكن هذه ليلة عابرة ، فنمط حياتي وتفكيري لم يكن يسمح يوما بتلك الليالي العابرة ، فضلا عن ذلك فأنا أحس الآن أننا قطعنا أشواطا أطول مما تستوعبه الساعات الثماني والأربعون التي هي عمر علاقتنا . هي تتابعني منذ فترة ، ولكن كيف وقعت أنا؟ كيف اخترقتني بهذا العمق؟ كيف نمت هذه الإلفة بيننا بهذا الوقت القياسي؟

كانت هذه الأفكار والأسئلة تتنازعني بصمت ، ولكن ما بالها صامتة هي أيضا؟ وهل يشغلها الموضوع نفسه؟

استدرت بوجهي نحوها فوجدتها قد أغمضت عينيها وغابت في سبات عميق .

سحبت ذراعي من تحتها برفق ، تململت قليلا وتمتمت بشيء لم أفهمه . أطفأت النور وغبت بدوري في سبات لم أستيقظ منه إلا حين كانت الشمس قد اخترقت الغرفة في صباح اليوم التالي .

لا تزال نائمة ، نظرت إلى وجهها ، كان هادئا وصافيا

بشكل زاده جمالا . ابتسمت ، ويبدو أنها أحست بنظراتي ، فقد فتحت عينيها ببطء .

- صباح الخير .

قالت بصوت متهدج .

قبلتها ، وقلت : يلا نروح نفطر .

لم تجب ، بل تململت قليلا ثم نهضت واتجهت إلى الحمام .

غابت دقائق ثم خرجت وأشارت لي من باب الحمام .

- شو؟

- تعال بدي اياك .

ضحكت .

- تحت الدوش .

قالت وضحكت بدورها .

- عمرك جربت؟

قلت بخبث : طبعا .

ردت متصنعة الغضب : بديش! شو هذا مش عدل . كل إشي جربته مع غيري؟

- شو أعمل إذا أنا أكبر منك بثلاثين سنة؟

- يا سلام .

- ما كنتي عارفة؟

- طيب خلص ، قفل لي هالسيرة .

- إنتي اللي فتحتيها .

- شو بدك تقضي الوقت بالحكي ، فعلا إنك حكاء زي ما قالت صاحبتك .

- مين صاحبتي؟

سألت باستغراب .

- اللي في الرواية .

ضحكت .

- لا ما تخلطي حياة الكاتب بحياة أبطال رواياته .

- يعني بدك تقنعني ان حـــيــاتك مش مــوجــودة في رواياتك؟ صعب أقتنع .

- لا أكيد موجودة ، بس مخلوطة بكثير من الخيال .

- طيب تعـال يا خيـالي إنت . إنزل شـوي لأرض الواقع وأسعد حبيبتك .

أغلقنا باب الغـرفـة من الداخل وأكـملنا مـا بدأناه ليلة البارحة ، تحت الدوش .

حين خرجنا نظرت الى السـاعة وقالت : يا ويلي ، صارت الساعة تسعة .

- رح تتأخري على شغلك . مش مشكلة؟

قالت وهي ترتدي ملابسـها : صاحبتي بتسجلني . هيك دايما بنعمل ، إذا تأخرت هي كمان أنا بسجلها .

- والإدارة ما بتلاحظ؟

- لا هاي شركة كبيرة .

لفت انتباهي أن علاقتها بزميلتها أستر، اليهودية، التي سمتها «صاحبتها» بهذه السلاسة. لاحظت الشيء نفسه في علاقات الذين قابلتهم على العشاء، كانوا يتحدثون عن زملاء وأصدقاء وزبائن يهود بمنتهى الطبيعية.

ارتديت ملابسي بدوري ورافقتها إلى السيارة. حاولت استبقاءها للإفطار لكنها لم تكن تريد أن تتأخر أكثر من ذلك.

بعد أن غادرت توجهت إلى المطعم حيث تناولت الإفطار ومن ثم غادرت الفندق.

- ٧ -

عدت إلى الفندق بعد جولة في المدينة ، بدون دليل هذه المرة . تعمدت أن «أتوه» في شوارعها . كنت أمارس تسلية من نوع خاص : أتأمل في ملامح المارة ، وأحاول التخمين إن كانوا عربا أم يهودا . لم يكن الأمر سهلا ، إلا في حالات محددة ونادرة ، حين كانت المرأة محجبة مثلا . ملامح الناس ، أزياؤهم متشابهة إلى حد كبير . حتى العرب يتحدثون العبرية معك إن صدف أن كنت زبونا في مقهى ولم يتأكدوا من هويتك . مظهر آخر من مظاهر تداخل وارتباك الهوية .

في السادسة وصل جمال . لم أكن مرتاحا للقاء ، وقد حيرني إلحاحه . في النهاية هو ضابط أمن إسرائيلي ولا يمكن أن أثق به ، حتى ولو كان عربيا ومعجبا بروايتي ، هذا لو افترضنا أن الإعجاب حقيقي وليس غطاء لمقصد آخر .

سلم علي بحرارة ، ودعاني إلى الصعود لسيارته التي كانت متوقفة أمام الفندق .

– رح أوخدك على محل خاص نشرب بيرة ونتحدث .

– في حيفا؟

- لا في تل أبيب ، أنا مقيم في تل أبيب .

لم أرتح أبدا للاقتراح ، وبدأت أحس بالتوتر . نظر إلي أثناء القيادة ، ويبدو أنه لاحظ توتري .

- مالك؟

- ولا شي .

- لا أنا عارف الوضع ، وفاهم شو اللي مضايقك . أنا الآن مش ضابط الأمن اللي حقق معك في المطار . أنا قارئ معجب برواياتك ، وبدي أعزمك على بيرة ونتحدث عن الرواية . حاول تفصل .

وعدته أن أحاول ، وإن كنت أتوقع أن يكون الأمر صعبا .

- إنت من وين جمال؟

- من الدالية . دالية الكرمل .

- درزي؟

- نعم درزي .

- أهلا وسهلا .

- أهلا فيك .

- طيب ليش مش ساكن في الدالية؟

لاحظت أنه قطب قليلا ، ظننت أنه لم يرتح لتدخلي في خصوصياته ، اعتذرت وسحبت السؤال .

- لا أبدا ، مش هيك الموضوع .

- ولا شو؟

– إسمع ، إحنا عندنا عادات في الطائفة . غير مقبول إنك تتزوج من خارج الطائفة ، وأنا عملتها .

– من وين تزوجت؟

– من حيفا ، مسلمة سنية . تعرفت عليها في الجامعة ، أنا درست في جامعة حيفا . حبينا بعض والأهل ما تقبلوا طبعا ، فقررنا نسكن في تل أبيب ، خاصة إني بشتغل في المطار ، وهي لقيت شغل في جامعة في تل أبيب . هي متخصصة أدب عربي ، معها ماجستير وبتحضر للدكتوراه . أعطيتها روايتك تقراها وحابة تتعرف عليك .

– بيشرفني .

– بعد البيرة ممكن نمر عنا عالبيت إذا مش مرتبط ، شو رأيك؟

لم أكن متحمسا ، لكني لم أرفض العرض .

تحدثنا طوال الرحلة من حيفا إلى تل أبيب ، حاول أن يشرح لي موضوع الفصل بين حياته المهنية وحياته الخاصة ، وأنه في داخله فلسطيني مثلي تماما . لم أرد مناقشته في البداية ، لأني لم أكن بعد مطمئنا إلى قدرته على الفصل التام ، وهل هو قادر على وضع حاجز بين المعلومات التي يحصل عليها أثناء ممارسة حياته المدنية ، العادية ، التي يفترض أن يكون فيها فلسطينيا ، ومتطلبات عمله كضابط أمن إسرائيلي مهمته اصطياد المعلومات؟

وصلنا تل أبيب ، وتوقف أمام بار في وسط المدينة .

- هذا غير مفتوح للناس العاديين ، هو أقرب ما يكون إلى نادي مغلق .

حيا رجل الأمن الواقف أمام النادي ، وتحدث إليه بالعبرية . لم أفهم مغزى الحديث ، لكنني رأيت جمال يخرج هويته ويقدمها لرجل الأمن الذي تأمل فيها ، ثم قال له شيئا امتقع وجهه على إثره واحتدت نبرة صوته .

أخرج جمال هاتفه وبدأ بالاتصال بشخص ما والتحدث بالعبرية ، بدأ صوته يعلو ، ويحتد ، راقبت حركاته ، كان منفعلا .

أغلق الخط وتلفظ بشتيمة بالعربية . ثم دعاني إلى المغادرة

- مالك؟ شو اللي عصبك؟

- كس إمهن .

- شو اللي صار؟

- كلاب .

- طيب إحكيلي إيش صار؟

- هذا الحيوان ، لما شاف إسمي في الهوية رفض يدخلني .

- لأنك عربي؟

- لأني عربي .

- وليش مستغرب؟

- هذا نادي خاص ، مغلق وأنا عضو فيه! يعني ممكن ما

يسمح بدخول يهودي غير عضو ، لكن أنا عضو حتى لو كنت عربي .

لم أعلق ، تعمدت ألا أعلق . تركت الموضوع يتفاعل في داخله ، لعله يدرك مغزاه . لم تشفع له خدمته في جهاز الأمن ، بقي في نظرهم عربيا . هو يقول إنه في داخله عربي ، فلسطيني ، رغم كونه ضابط أمن ، ويبدو أنهم لا يرون إلا داخله ، مهما تفانى «خارجه» في خدمة مؤسساتهم ، حتى الأمنية منها .

- عموما مش مشكلة ، بنروح عندي عالبيت ، أمل بتنتظرنا ، متحمسة تتعرف عليك .

عدنا إلى السيارة ، وانطلقنا باتجاه شقته . كان مكتئبا طوال الطريق . حاول أن يغير الموضوع ، لكنه ظل يعود إليه .

- لو الواحد يهاجر على أوروبا ويشتغل زبال هناك أشرف له .

نظرت إليه بشيء من الشفقة ، هل أجاريه في الحديث؟ سيجرنا ذلك إلى نقاش صعب .

- ما بظن الوضع بحتاج هجرة لأوروبا . يمكن لو تهاجر لفلسطين بتنحل الإشكالية .

نظر إلي مستغربا : شو قصدك؟

هل من الحكمة أن أتمادى؟ ماذا لو كان الموضوع لا يتعدى تمثيلية محكمة لجر رجلي؟ لكن ماذا يريدون مني؟ لم يبدوا

اهتماما خاصا بي في المطار ، ولا يبدو أن لديهم ملفا أمنيا ضدي .

– قصدي إن الإشكالية عندك إنك حاسس بالغبن ، لأنك بتخدمهم زي أي يهودي ، حتى على حساب مصلحة أبناء جلدتك ، وفي الآخر بتظل في عيونهم فلسطيني . طيب إترك الخدمة في الجهاز بتصير على الناحية الأخرى ، وبتصير تحس بالغضب بدل الغبن والذل إذا اضطهدوك .

هز رأسه وقال :

– فات الأوان .

لم ألح .

وصلنا العمارة التي يقيم فيها . ترجلنا من السيارة ودخلنا . قرع الجرس ، جاء صوت نسائي من الداخل يسأل عن الطارق بالعبرية التي أفهم القليل منها .

فتح الباب لأجد نفسي في مواجهة امرأة شابه مبتسمة الوجه .

– أهلا أهلا أستاذ .

رحبت بي ببشاشة .

– تفضل .

قادتني إلى غرفة جلوس متوسطة المساحة ، أكثر ما لفت انتباهي فيها رفوف كثيرة للكتب .

– تفضل .

أشارت مرحبة إلى المقاعد الجلدية التي صفت على شكل

حرف L ، ووضعت أمامها طاولة عليها تحف خشبية ومزهرية فيها ورد طازج .

جلست ، أما أمل فقد توجهت إلى زوجها بالسؤال :

- نسيت مفتاحك بالبيت؟ ليش رنيت الجرس؟

- لا أبدا ، بس حبيت أنبهك لوصولنا ، جينا قبل الموعد اللي متوقعتيه .

- صحيح ، ليش؟ ما رحتو تشربوا بيرة؟

- لا .

- ليش غيرتوا رأيكن؟

نظر جمال إلي ، ثم إلى زوجته : ولا شي ، قلت بنشرب بيرة في البيت ، عشان تشوفي الأستاذ فترة أطول .

ابتسمت أمل : يسعدك شو مذوق . خليني أجيب البيرة .

حين دخلت المطبخ استوضحت من جمال عن سبب عدم بوحه لزوجته بالسبب الحقيقي لحضورنا مبكرين . قال إنه لا يريد جدلا معها . فهمت أن أمل غير مرتاحة أبدا لخدمته في جهاز الأمن ، وتلح عليه في البحث عن عمل في مجال آخر .

- عنا هاينيكان وأمستل ، شو بتفضل؟

- كله واحد .

أحضرت أطباقا صغيرة فيها مكسرات ، وثلاث زجاجات أمستل ، وضعتها على الطاولات الصغيرة .

- تفضل .

- شكرا .

- انا كتير سعيدة إنك شرفتنا .

ابتسمت .

- شكرا .

- على فكرة قربت أخلص الرواية ، شدتني كتير . عندي ملاحظات واستفسارات .

- تفضلي .

- لا مش هلا ، لما أخلصها ، حتى تكتمل الصورة عندي .

- مرتي تلتهم الكتب التهام .

قال جمال ضاحكا .

- وهو كمان بيحب يقرأ ، قرأ روايتك بليلة واحدة .

أحسست بفرح طفولي وأنا أستمع لإطراءاتهما للرواية ، المباشرة وغير المباشرة .

- كيف بتتعرف على شخصياتك؟

سأل جمال .

- شو قصدك؟

- قصدي من وين معلوماتك عن طريقة تفكير جندي إسرائيلي مثلا؟ إنت من الضفة ، ما بظن عرفت جنود إسرائيليين عن قرب .

احتجت أمل : يعني ضروري نفتح نقاش قبل ما أخلص الرواية؟ رح تحرقولي ياها

ابتسمت .

- أمل عندها حق ، خلينا نأجل النقاش لحتى تخلصها .

قالت أمل بفرح : وهيك بنضمن كمان زيارة .

قال جمال بحماسة : إذا هيك ما عندي مانع .

- تفضل أستاذ ، إشرب بيرتك

سكبت البيرة من الزجاجة في الكأس ورفعتها : بصحتكم .

- بصحتك .

- طيب ، ممكن أطلب طلب؟

- تفضل .

- بلاش أستاذ هاي ، انا إسمي منير .

- تشرفنا أستاذ منير .

ضحكت : استاذ برضه؟

- طيب منير بلا أستاذ .

ورفعنا الكؤوس مرة أخرى احتفالا برفع الكلفة .

- أمل شو موضوع رسالة الدكتوراه؟

- الأدب النسائي العربي .

قال جمال : أمل فيمينيست يا سيدي ، أكثر من نص الكتب عنا في البيت عن الحركة النسوية .

نظرت إلى رفوف الكتب المكتظة : بتسمحولي بنظرة استطلاع على الكتب؟

- تفضل .

وقفت واتجهت إلى الرفوف ، وبدأت بمعاينة الكتب عليها ، وأمل تقف إلى جانبي ، بينما دخل جمال إلى المطبخ .

كانت الكتب التي تتحدث عن الحركة النسوية تحتل حيزا مرموقا من الرفوف فعلا ، والبقية تحتلها أعمال روائية معظمها لكاتبات من أنحاء العالم العربي .

– إنت مهتمة بأعمال نوال السعداوي الروائية؟

– قرأتها كلها تقريبا ، ضعيفة . أنا معجبة بكتبها الفكرية أكثر .

– صح ، عندك حق ، رواياتها فيها تشنج نسوي يجعل شخصياتها ، النسائية تحديدا ، مفتعلة وغير مقنعة .

– أتفق معك . من بين الروائيات أنا معجبة ببعض روايات رضوى عاشور ، وببعض روايات سحر خليفة ، مش كلها ، رواياتهم «النسوية» ما بتعجبني ، بتعاني من مشكلة روايات نوال نفسها .

عاد جمال من المطبخ يحمل صينية عليها خيار وجزر وأطباق إضافية من المكسرات .

– شو رأيك بمكتبتنا؟

سأل بنبرة تشي بالفخر .

– ثرية جدا .

– ما كان سهل تجميع كل هاي الكتب ، كثير منها جبتها من مصر في زياراتي اللي كانت الكتب أهم أسبابها .

- زرتي القاهرة؟

- نعم ، شي خمس مرات . زرت مقهى ريش والفيشاوي وكل بؤر المثقفين المصريين .

عدنا إلى المقاعد ، ولاحظت للمرة الأولى لوحة عليها مجسم لقبة الصخرة ، إلى جانبه خريطة فلسطين . فاجأني الموضوع ، ويبدو أني استغرقت في تأمله بشكل ملحوظ .

- متفاجئ ، صح؟

سأل جمال .

نظرت إلى أمل فوجدتها مطرقة في الأرض بحزن واضح .

- هي حياتنا بكل جوانبها كلها غريبة ، والتناقض هو وجهها الطبيعي . فكر فيها : أنا درزي ، وهي سنية ، أنا فلسطيني وهي فلسطينية ، تجوزنا بالسر . حتى الآن ما تعرفت على حدا من أهلي ، بكرا ولادنا رح يخلقوا في غيتو داخل الغيتو . رح يعيشو مقطوعين من شجرة ، لا أخوال ولا أعمام ، واحنا عايشين هون بين الغرباء .

نهضت أمل فجأة وغادرت الغرفة ، ربما أرادت تجنب أن يرى غريب دموعها . خمنت أنها دخلت الحمام لتغسل وجهها .

- طيب بالنسبة لأهلك الموضوع واضح ، بس شو بالنسبة لأهل أمل؟ ليش مقاطعينكم؟

وجهت السؤال لجمال لكن الإجابة جاءت من أمل ، التي

كانت قد عادت وقد غسلت وجهها .

- أهلي كان عندهم تحفظ على شغل جمال ، وكمان حسوا بالإهانة إنه ما حضرت جاهة من عيلته زي العادة ، ولا حدا من أهله راح يخطبني منهم . واحد صديق جمال هو اللي حكى مع أبوي ، وأبوي رفض التعاطي بالموضوع . قال لي يا بابا مش رح أوقف في طريقك ، بس ما بدنا نعرف جوزك ولا بدنا أي علاقة معه . تجوزوا ، الله يسعدكم ، وإنتي بتظلي بنتنا ، بس جوزك ما رح يصير من العيلة . إمي بكت يوم عرسي . أنا العروس الوحيدة اللي إمها بكت من الحزن يوم عرسها بدل ما تفرح .

اختنق صوت أمل بالحزن ، فأكمل جمال القصة :

- ما عملنا عرس ولا شي ، دعينا اثنين شهود ، واحد صديقي وواحد صديق أمل ، ورحنا عند المأذون كتبنا الكتاب وبعدين جينا سوا عالشقة . أنا بزور أهلي طبعا ، وهي بتزور أهلها ، لكن ما فيه علاقات عائلية بيننا وبينهم .

بدا لي الوضع مألوفا ، على تعقيده . هما يعيشان الآن في غربة مركبة . كيف سينشأ أطفالهما يا ترى؟ ليس بسبب اختلاف هوية الأب عن الأم ، فالاختلاف شكلي ، في النهاية كلاهما فلسطيني ، لكن بسبب كونهما سيعيشان بين أغراب ، وفي عزلة تامة عن عائلتي الأم والأب . لا بد أنهما فكرا في هذا ، فهل كان الحب بينهما أقوى من كل هذه التعقيدات؟

- طيب ، في المستقبل ، لما يكون عندكم اطفال ، رح تظلوا عايشين في تل أبيب؟
- لا ، مستحيل .
قالت أمل بثقة .
- رح ننتقل لمدينة عربية ، مش ناقصني أولادي يعانوا غربة قومية كمان .
- لسة مش مفكرين بالأطفال .
قال جمال .
- ظروفنا حاليا ما بتسمح ، خلي أمل تنتهي من تعليمها وتحصل على وظيفة مستقرة وبعدين بنشوف .
وافقته أمل ، وأضافت :
- يعني مش قبل ٥ سنين .
تحدثنا ساعة أخرى في مواضيع متفرقة ، ثم أعلنت رغبتي بالمغادرة .
- بدي آجي معك توصل منير .
قالت أمل لجمال .
فرحت لاقتراحها ، لم أكن أرغب بالانفراد بجمال كما في طريق الحضور من حيفا . مع أن الجو في شقته كان وديا ، وأستطيع أن أقول إنه كان حميميا إلى حد ما ، إلا أن حذري المعهود جعلني لا أطمئن إليه بشكل مطلق .
توقعت أن أجد رسالة من سمر بانتظاري في استقبال

الفندق ، وسألت الاستعلامات ، فأجابوا بالنفي . شعرت بخيبة أمل ، وشيء من الحزن .

لم أكن أعرف رقم هاتفها ، لن أستطيع الاتصال بها ، لكني سأرسل لها رسالة عبر فيسبوك . أفتقد حضورها ، صوتها ، مشاكساتها ، لمساتها . جسدها . لا أفهم نفسي تمامي . لم أعتد أن أتعلق بامرأة خلال هذا الوقت القصير ، متطلبات المشاعرية عندي معقدة في العادة . في كل علاقاتي السابقة كنت أتعلق بامرأة أعرفها بشكل عميق ، وعلى مدى شهور على الأقل . هذه البنت تغلغلت في كياني بين لحظة وأخرى . ربما بسبب عفويتها واندفاعها اللذين سكبا مكنونات روحها بكثافة وجدانية ، أو لعل جنونها كان الشرك الذي اصطادني . هي نقيض كل الأنماط التي لا أطيقها ، فكيف لا تجذبني؟

أرسلت لها رسالة من كلمتين عبر فيسبوك : «عدت . أفتقدك . .» .

انتظرت الرد بلهفة ، كنت أدخل إلى الماسينجر كل خمس دقائق لأرى إن كانت قد قرأت الرسالة . بعد مضي أكثر من ساعة لم تقرأها ، رغم أني أستطيع أن أرى أن هاتفها الذكي مفتوح وهي أون لاين . بدأت أحس بالضيق . معقول؟ بعد كل الجنون والحب المنفلت من كل الضوابط الذي شهدته الليلة السابقة ، لا تحاول الاتصال؟ ليلة أمس كانت تتحدث عن مستقبلنا معا ، وذهبت بعيدا . والآن لا تفتقدني ، كأني لم

أكن؟ هل كنت بالنسبة لها نزوة عابرة؟ أم فضولا أطاحت به تجربة الليلة الفائتة؟ هل كان ما يشدها إلي إعجاب، انبهار بشخصية معروفة، بعيدة، فقدت بريقها بمجرد الاقتراب ولم تعد تجذبها؟

نزلت إلى البار، طلبت كأسا من البيرة، أبلغت الاستعلامات أنني أنتظر مكالمة مهمة وطلبت منهم أن يحولوها لي إلى البار. انتهيت من الكأس الأولى، لم تأت المكالمة. طلبت كأسا ثانية، وبقيت أراقب نشاطها على فيسبوك. لا نشاط. لم تقرأ رسالتي. ما الذي يجري؟ انتهيت من الكأس الثانية لم أطلب ثالثة، صعدت إلى غرفتي. وقفت أمام النافذة، تأملت أضواء الميناء. هذا طقس أقوم به كل ليلة قبل أن أخلد إلى سريري. أطلته هذه المرة، على أمل أن يرن الهاتف، أو تدب حياة في بروفايلها على فيسبوك. لم يحدث شيء. نمت مكتئبا.

- ٨ -

لا أفق لهذه العلاقة ، ولا ينذر التمادي فيها سوى بمزيد من الألم والدموع والعواصف . عائلتي لم تتقبل شابا في مثل سني ، من مدينتي ، حياته مستقرة ومستقبله المهني مقبول لهم ، بل مرغوب . رفضوه لأنه مسيحي وأنا مسلمة . هل أنا مسلمة؟ هل عائلتي مسلمة؟ هل تبقى مظاهر الانتماء الديني غائبة معظم الوقت ولا تحضر إلى المشهد إلا لتدمر علاقاتنا وتعقد حياتنا؟ كنت أحبه ، بقينا معا أكثر من سنة ، وكانت العائلة تتقبل خروجنا معا ، بل كان يزورني في المنزل ولا اعتراض . حين أعلنا رغبتنا بالارتباط النهائي ثارت الزوابع ، منعوني من رؤيته . قال أبي كلمته وانتهى الأمر بالنسبة له ، لا مناقشة ولا حجج ولا أخذ ورد . قال كلمة حاسمة : الديانة خط أحمر . نحن أبناء وطن واحد ، نعيش في مدينة واحدة ، نواجه مصيرا واحدا ، ينكلون بنا ويميزون ضدنا دون تفرقة . الدولة ومؤسساتها هي الوحيدة التي لا ترى الفوارق الطائفية ، لا يعنيها بشيء قرآننا أو صليبهم ، يناصبوننا العداء بالمستوى نفسه . أما نحن فنرى الفروق ، وإن لم توجد اخترعناها . قالوا

لي : الصداقة مقبولة ، العلاقات العائلية ، البيزنس ممكن ، أما الزواج فلا وألف لا! بكيت ، توسلت ، قبلت الأيادي . لا أذن تصغي ولا قلب يرق . لم يكترث لاكتئابي ، فقداني الشهية للأكل والحياة ، أرقي . قال كلمته وصمت . أصم أذنيه وأغلق عينيه . كان قاسيا ، وسيكون أكثر قسوة هذه المرة . منير يكبرني بثلاثين عاما ، و هو من الضفة أيضا . لو ضربت رأسي بالحائط حتى الإدماء فلن يستمع إلي . منير أكبر منه بخمس سنين . سيستشيط غضبا . سأقول له : أحبه! سيصرخ في وجهي : حبك برص! ألا تستطيعين أن تحبي إلا كارثة؟ أكبر من والدك ومن الضفة أيضا؟ هل اختفى الرجال من هذه المدينة؟ ألم تجدي من هو في مثل سنك ومن دينك نفسه؟ أم أنك تتعمدين الشطط دائما؟

لا أستطيع التمادي . يجب أن أسيطر على مشاعري الآن ، قبل أن تستفحل . اتخذت القرار في أحرج اللحظات ، حين كنت أنصهر فيه وأنهل السعادة واللذة من جسده ، مع تلك الرعشة التي اختطفتني من عالم المعادلات والقوانين وحولتني إلى كيان عاشق ، لا يعي سوى لذة الجسد وانعتاق الروح ، في تلك اللحظة تحديدا ومض شيء في وعيي ، اخترق الأثير الذي غلف الروح ونفذ إلى أعماقها ، في تلك اللحظة اختلطت في صرخاتي اللذة بالألم والإحساس بالضياع ، بكيت ، انهمرت دموعي ، قرأت الصدمة في عينيه ،لم يفهم . كيف له أن يقرأ

ما يعذبني؟ ألم أكن المبادرة؟ نعم ، هو كان متحفظا في خطواته ، لم يشجعني حتى ، أنا بادرت ، أمسكته من يده وقدته إلى السرير ، فكيف له أن يفهم نكوصي الآن؟

أرسل لي رسالة عبر الماسينجر . قرأتها دون أن أفتحها . «أفتقدك» ، كتب . بماذا أرد؟ ماذا أكتب له؟ هل أقول إنني غيرت رأيي؟ جبنت؟ خذلتك وخذلت قلبي وجسدي؟ اخترت طريق السلامة؟ أحبك وأحب أبي أكثر وتعنيني اعتباراته أكثر من نداء قلبي؟ هل أقول له عد إلى الضفة واعشق امرأة من هناك؟ يا للعار! «شعب واحد ، شعب واحد!» أبي فلسطيني حتى النخاع . مع أن له أصدقاء من اليهود ، وعلاقات بيزنس معهم ، يسافرون معا في رحلات ترفيهية ، يسهرون ويسكرون معا ، إلا أنه كان يصفق جذلا وهو يسمع صواريخ حزب الله تسقط على المدينة . كنا في خطر ، قتل بعض مواطني المدينة العرب من جراء تلك الصواريخ ، كان يجب أن يلعن ويشتم ، أن يخاف ، لكنه كان يضحك ويصفق . كان يقول : لا شيء يعادل خوفهم ، ليخافوا هم ، ليختبؤوا هم ، ليجربوا الرحيل هربا من الموت ، لتملأ لياليهم الكوابيس! نعم هذا هو أبي . فلسطيني حتى النخاع ، ولذلك فهو بلونين أو أكثر . يحب أهل الضفة وأهل غزة ، كنت طفلة حين رأيته يبكي أمام التلفزيون على محمد الدرة ، ما زلت أذكر انتحابه . كان مكتئبا حين اجتاحوا الضفة عام ٢٠٠٢ ، كنت طفلة

أيضا ، لكني أذكر . كان يعشق أبو عمار . نعم ، هو فلسطيني القلب والروح ، لكنه لن يوافق على زواج ابنته من ضفاوي . الكثيرون يتزوجون من الضفة ، خاصة في منطقة المثلث الذي هو أقرب اجتماعيا إلى أهل الضفة . أبي لن يوافق ، وهو ليس وحيدا ، ولا حتى استثنائيا في موقفه هذا . لا أعرف الكثير من حالات الزواج من أهل الضفة في المدينة . هو يحبهم ، لكن على أن لا يقتربوا أكثر من اللازم . له أصدقاء وشركاء بيزنس منهم ، يدعوهم إلى الغداء أحيانا ، لكن لن يسمح بدخول واحد منهم إلى غرفة نوم ابنته . هناك خط أحمر ، بلون الدم الذي يربطنا والذي سال منا جميعا على النصال نفسها ، بفعل السكاكين نفسها . الأحمر يربطنا ويفصلنا . لا نتجاوزه مهما حصل .

أعرف أنك تنتظر مكالمتي ، لكنها لن تأتي . ستظن بي الظنون ، ومعك كل الحق . اتركني يا هذا ، دعني أنزف ألما وشوقا ولوعة ، بعيدا عنك . دعني أتجرع خيبتي وحيدة . عد إلى لندنك وكتاباتك ومعجباتك ، ما الذي أتى بك إلى هنا؟ لماذا أتيت إلي واقتحمت خلوتي الآمنة؟ كنت معجبة بك ، من بعيد ، كنت صورة بلا صوت ، روحا بلا جسد ، أفكارا وجماليات ، فلماذا تجسدت أمامي بلحمك ودمك وضحكتك وصوتك ولهجتك في الحديث ؟ كنت شخصية في واحدة من رواياتك الكثيرة ، أعجب بها ، أعشقها ، لكنها لا تجرحني ، لا

تخطفني من قدري ، لا تتطفل على معادلاتي الهشة .

ماذا أعمل الآن يا ربي؟ بأي قوة أواجه هذا الاجتياح؟ أي قدر يعبث بي؟ أنا متعبة ، لم أشف بعد من جراحي الأولى ، لا قبل لي بهذا الألم . السعادة محرمة علينا منذ قضم آدم تلك التفاحة . لم نعد نعرف سوى الشرائع والقوانين . آه يا منير ، ما الذي طوح بك في مـــــداراتي المضطربة؟ يا ربي ، يا ربي . آآآآآآه . . .

في الدور الأرضي كانت العائلة تشاهد مسلسلا سوريا ، كان صوت التلفاز مرتفعا ، ولم يسمع أي منهم نشيجها . .

- ٩ -

فـتـحـت عـيـني على رنين الـهـاتف في الغـرفـة ، خطفت السماعة بلهفة . أخيرا .

– وين كنتي؟ ليش بترديش عالماسينجر؟

لكن الرد لـم يأت منهـا ، بل من صوت رجـالي غريـب قال بلهجة ساخرة :

– يعطيك العـافيـة ، مبين متسلي هناك وناسي اللي هون ، عموما الله ييسر لك ، إحنا بنزعل؟ بس عيب عليك .

أفاقتني الصدمة ، قاطعته :

– مين معي عفوا؟

– شو بهمك؟ هو إنت سائل فينا؟ ما انت اخترت التطبيع وبدل ما تيجي تعمل أمسية في نابلس رحت على حيفا .

سألت مرة أخرى ، بغضب :

– مين معي؟

– مش مهم ، خليك بأمسياتك ونسوانك في حيفا . تل أبيب إيمتى دورها؟ فلسطين عربية! .

وأغلق الخط .

اللعنة! هل كان يجب أن أفتح عيني على هذا الصوت الكريه؟

فتحت هاتفي ودخلت إلى فيسبوك . لا أثر لها . ما الذي يجري؟ لا أفهم سلوكها ، ولا أستطيع تخمين سبب هذا الاختفاء المفاجئ . أفهم أن تكون قد غيرت رأيها ولا تريد الاستمرار في العلاقة ، وأستطيع تقبل هذا مهما كان مؤلما ، لكن لماذا لا تحدثني في الموضوع مثل أي شخص عقلاني ، ذكي يجيد التعبير عن نفسه؟ لماذا تتركني نهبا لهذا الغموض؟

وأنا ، كيف ألقيت بنفسي في التجربة بهذا التهور؟ لم أعتد أن أبدأ علاقتي بامرأة في الفراش ، ولا نصل في العادة إلى السرير إلا عبر مسالك معقدة تنطلق من الإعجاب المبدئي ، الذي يعقبه اهتمام خاص يودي بنا إلى لقاءات وأحاديث ونقاشات ، ومن ثم يسلمنا إلى أي احتمالات أخرى .

هذه المرة لم نسلك الطريق المعتاد ، بل تسللت إلى وجداني من مسالك جانبية ، وعبر ثغرات غير محروسة .

أو ربما غافلت الحراس ، وتسللت عبر الهشاشة التي تكشفت لها في أحاديثنا الأولى .

وما يهم كل هذا؟ هي اخترقت حصوني الآمنة ، وانتهى الأمر . لكن لماذا غيرت رأيها بهذه السرعة؟

زرت الماسينجر مرة أخرى ، لم تكلف نفسها عناء قراءة رسالتي .

لأبدأ معركة النسيان إذن . لن يكون الأمر سهلا ، فأنا آلف الأشخاص بأسرع مما أسلوهم ، خاصة إذا اقتربوا من مساحاتي الحميمة . لأحاول أن أشغل نفسي ، سأتوجه إلى يافا ، لوحدي . سأتمشى في شوارعها ، على شاطئها ، سأمارس لعبتي المفضلة ، أتأمل في وجوه المارة وأحاول أن أخمن من منهم ولد هناك ، ومن جاءها غريبا واغتصب حقوق المقيم .

أخذت حماما ساخنا ، ونزلت إلى اللوبي . قررت أن أتناول إفطاري في يافا ، فمن يرغب بإفطار الفنادق وهو يستطيع تناول معجنات «أبو العافية» الشهية؟

اكتفيت بفنجان قهوة إسبريسو في اللوبي ، وغادرت الفندق .

محطة مترو الأنفاق على بعد يسير من الفندق . سآخذ المترو إلى ساحة باريس ، ومن هناك أتمشى قليلا باتجاه محطة القطارات القريبة .

في محطة مترو الأنفاق أصادف مجموعة من طلبة الابتدائي العرب مع مدرستين . تحاول المدرستان ، بصعوبة ، السيطرة عليهم . يقفزون ويتعاركون ، ويمرحون والمدرستان تتصرفان بعصبية ، التوتر واضح في كل حركة من حركاتهما . ليس سهلا أن تكون مسؤولا عن سلامة جيش من العفاريت في رحلة مدرسية .

وصل المترو ، وانطلقنا . لم تستغرق الطريق إلى ساحة باريس سوى بضع دقائق .

غادرت المحطة وسرت باتجاه محطة القطارات القريبة ، واشتريت تذكرة إلى تل أبيب . مع أنني لا أتحدث العبرية إلا أني أحس بأمان وانا أتنقل بين الإسرائيليين ، وبعضهم جنود يحملون أسلحتهم الشخصية . لم أكن أتنقل بهذه السلاسة وسط الإسرائيليين دائما ، فحين لم أكن أملك سوى هويتي كنت دائم التوتر وأنا أجوب شوارع نتانيا أو تل أبيب . هذا الشعور بالثقة اكتسبته حين حصلت على جنسية أوروبية . نعم ، حتى أسير مطمئنا في شوارع بلادي يجب أن أستعير امتيازات الغرباء .

توقف القطار في الخضيرة ، ونتانيا . غادر بعض الركاب وصعد آخرون ، بينهم عرب . أتوجه بسؤال إلى الراكب بجواري ، وهو جندي يرتدي الملابس العسكرية ويحمل سلاحا أوتوماتيكيا ، حول المحطة التي يجب أن أنزل فيها في تل أبيب حتى أكون أقرب ما يمكن إلى يافا . أخاطبه بالإنجليزية ، يجيبني بإنجليزية تشوبها لكنة عبرية قوية ، لكن بلهجة محايدة . هل كان سيكون بهذا الحياد لو عرف أني فلسطيني؟

وصلنا إلى المحطة في تل أبيب ونزلت من القطار . سألت أحد المارة عن الاتجاه الذي يجب أن أسلكه للوصول إلى شاطئ البحر ، أردت أن أتمشى على الشاطئ في طريقي إلى يافا .

كان الطقس مشمسا والجو دافئا ، لكن الأمواج كانت مضطربة . أحب منظر البحر حين يكون مضطربا ، عندها أحس

أنه كائن حي ، يجيش بالعواطف والانفعالات ، يغضب ، يثور ، يحتج .

حين وصلت إلى بداية يافا سألت عن مخبز «أبو العافية» ، دلوني عليه ، لم يكن بعيدا . وقفت أمامه أتأمل أنواع الخبز والكعك المعروضة . هذا أقدم مخابز المدينة ، الكعك فيه معجون بتاريخها . طلبت كعكتين ، وتوجهت إلى مقهى قريب . كان الكعك ساخنا . طلبت فنجان إسبريسو ، وتناولت فطوري الأشهى منذ وصولي إلى البلاد .

– أستاذ منير؟ مش معقول!

نظرت إلى مصدر الصوت ، رأيت وجها مبتسما لامراة جميلة ، لكنني لم أتعرف على ملامحه .

– مش عارفني طبعا ، بس أنا عارفتك . رانية ، من قرائك المتحمسين كثير .

– أهلا وسهلا ، تفضلي .

أشرت إليها بالجلوس .

– شكرا ، بديش أعطلك كتير ، بس مبسوطة كتير إني شفتك ، وهذا طبعا بفضل فيسبوك . شفتك الصبح حاطط إنك رح تيجي على يافا ، وتمر عالمخبز ، قلت أنصب لك كمين

قالت وابتسامة على شفتيها . أجبتها بأحسن منها :

– أهلين فيكي ، أقعدي ، خدي قهوة .

أشرت للنادل ، وطلبت لها فنجان «كابوتشينو» .

- أنا مقيم في حيفا ، جيت على يافا زيارة .
- أهلا وسهلا ، كيف كانت أمسيتك في حيفا؟
- حلوة كتير .
- طيب خلينا نكسبك في يافا كمان .
- يا ريت ، بس الوقت قصير ، مش رح نقدر ننظم أمسية .

قالت بحماسة : ولوا إترك الموضوع علي . في مقهى هون بنعمل فيه أحيانا أمسيات ثقافية ، بنتصل بالناس وخلال يومين بننظم الأمسية .

قلت بفرح : وأنا ما عندي مانع ، بالعكس ، بيسعدني .

تبادلنا أرقام الهواتف ، وغادرت بعد أن وعدتني بأن تتصل بي لتبلغني بموعد الأمسية . لم أمكث بعدها طويلا . تسكعت في شوارع يافا قليلا . مررت بميدان الساعة ، درت حوله ثم جلست قليلا . رائحة الدم والتاريخ تدهمك بعد فترة وجيزة . دارت هنا معارك وسارت مظاهرات ، الصراع لم ينته على حق أبناء المدينة في الوجود فيها ، ما زالت الكثير من المظاهرات التي تشهدها المدينة تنطلق من هنا .

عرجت على كنيسة القديس بطرس وجامع البحر ، لم أمكث طويلا ، لم آتها سائحا فقد طفت بها كثيرا من قبل ، عانقت التفاصيل واحدا واحدا . جئت الآن أتفقدها ، كما في كل زيارة لي إلى المدينة . أريد أن أتأكد أنها ما زالت هنا ، تختزن في ذاكرتها الصلوات وأصوات الأذان و أجراس

الكنائس ، وتؤكد هوية المكان .

ثم بدأت أتململ . كنت أرغب بقضاء وقت أطول في يافا ، أجوب شوارعها ، أحاور بحرها ، لكن لعلها تحاول الاتصال بي في الفندق ، أو ربما تمر بدون سابق إنذار . تعجلت العودة . بمجرد أن نزلت من القطار بحثت عن سيارة أجرة ، وتوجهت مباشرة إلى الفندق . لم أشأ أن أضيع وقتا في المواصلات العامة . سألت موظف الاستعلامات إن كانت لي أي رسائل .

- نعم ، هناك مكالمة تلفونية .

بدأت دقات قلبي تتسارع . اتصلت إذن .

- هل ترك الشخص الذي اتصل رسالة؟

مد يده إلى مغلف أبيض وناوله لي . فضضته بسرعة . أخرجت الورقة .

«اتصل بك شخص يدعى جمال ، سيعاود الاتصال في المساء» .

اللعنة . ماذا يريد هذا؟

صعدت إلى الغرفة محبطا ، وما إن فتحت الباب حتى رن الهاتف .

هرعت إليه والتقطت السماعة .

صوت نسائي ، لكنه ليس صوتها . فترت حماستي .

- أهلا أمل .

- كيفك؟ جمال كان بيحاول يتصل فيك .

- آه ، ترك لي رسالة ، استلمتها من شوي .
- بده يعزمك على عرس أخوه في الدالية .

لم تكن بي رغبة في الدخول في هذه الدوامة : أعراس وعائلات ومجاملات .

- متى؟
- اليوم المسا .
- طيب ليش ما حكا مبارح؟

صمت قصير ، ثم : في الواقع أنا اللي اقترحت إنه يعزمك ، هو ما خطر بباله مبارح ، بعد ما مشيت عرضت عليه الفكرة .

- تسلمي ، بس ما بظن رح يكون عندي وقت .
- لا دبر وقت ، فرصة تتعرف عالأعراس الدرزية .

فعلا ، هذه فرصة لا تعوض ، ويمكن أن أستفيد من التجربة في كتاباتي . ثم ، لا أريد البقاء وحيدا في الغرفة هذا المساء في انتظار مكالمة قد لا تجيء .

- إنتي رح تيجي؟

قالت بصوت حزين : لا ما بقدر أنا ، أنا مش موجودة في حياة العائلة ، نسيت؟

- آسف .
- لا إنت شو خصك؟ هاي مأساة شخصية ، شخصية جدا .

- الله يعينك عليها .

- تسلم .

ودعت أمل بعد أن اتفقنا أن أنتظر جمال في الاستقبال في السابعة مساء .

- ١٠ -

لم تستغرق الطريق إلى دالية الكرمل أكثر من نصف ساعة ، قضيناها في الحديث عن عادات الطائفة .

– العروس درزية ، صح؟

– أكيد ، وإلا ما كان صار عرس عائلي .

– إنت الوحيد من العائلة اللي تجوز من خارج الطائفة؟

– الوحيد من العائلة ، بس مش الوحيد من البلد . الجيل الجديد صار يتململ أكثر ، كثير من أعراف وعادات الطائفة صارت تتآكل . ومنها عادات وتقاليد الزواج . العرس اللي رح تحضره اليوم فيه بعض ملامح الأعراس التقليدية لكن مش كلها . أهم شي الدبكة . حضرت دبكة فلسطينية قبل هيك؟

– طبعا ، وبعرف أدبك كمان .

– معقول؟

تساءل باستغراب .

– ليش مش معقول؟

– لأنك عايش برة من سنين طويلة .

– لا ما نسيت ، لسة بدبك في الأعراس اللي بحضرها .

سأل وابتسامة على شفتيه : واليوم رح تدبك في الدالية؟

ضحكت .

- لا بلاش اليوم .

- طيب على راحتك .

وصلنا مدخل البلدة . لاحظت الأجواء الاحتفالية منذ دخولنا . حشود من الناس تسير في الاتجاه نفسه ، وأجواء مرحة . حين اقتربنا أكثر سمعت أصوات القويلة وموسيقى اليرغول . كلما اقتربنا أكثر زادت الحشود ، المتجهة إلى بيت العريس كما خمنت . أخيرا وصلنا . شق جمال طريقه بصعوبة وسط المشاة الذين ازدحمت بهم شوارع البلد القريبة من بيت العريس .

- شو كل البلد جاية عالعرس؟

ابتسم .

- هيك إشي .

أخيرا وصلنا ، أوقف جمال السيارة ونزلنا .

- تفضل .

لم يكن سهلا اختراق الحشود . حين وصلنا الساحة التي عمرت بصفوف من الكراسي جلس عليها المدعوون . توجه جمال إلى رجل في السبعين كان يجلس في مقدمة الصفوف ، صافحه ولثم يده ، وقدمني إليه :

- الأستاذ كاتب من الضفة ، اسمه منير حمدان ، مقيم في لندن .

ثم توجه إلي : هذا والدي .
صافحني الأب بحرارة .
- أهلا وسهلا ، شرفتنا يا عمي .
- الله يزيدك شرف ، مبروك .
- يبارك في عمرك . تفضل . يا محمد هات كرسي ، أو تنتين ، حطهم هون جنبي . أهلا وسهلا ، شرفتنا .
جلست في الصف الأول من الساحة الكبيرة المضاءة ، التي احتشد فيها بضع مئات من الرجال والنساء .
انتصبت في وسط الساحة منصة خشبية تركزت عليها الأضواء ، واصطفت فيها ميكروفونات ومكبرات صوت . كانت الموسيقى والأهازيج تنبعث منها .
- جاي قويلة؟
توجهت بالسؤال إلى أبو جمال .
- قويلة؟
- حداية يعني ، زجالة .
هز رأسه : جاي اثنين من أشهر الحداية في كل الجليل . بأي لحظة بيوصلوا .
لم يتأخروا كثيرا ، فقد لفتت انتباهي جلبة عمت المكان بشكل مفاجئ ، تصفيق وصفير ، لم أدرك سببه إلا حين رأيت ثلاثة رجال يتوجهون إلى المنصة . ابتسموا وحيوا الجمهور ، اشتعلت الساحة بالصفير والتصفيق مرة أخرى . بدأت الحفلة

بعزف منفرد على «اليرغول» . قدم كل من الزجالين وصلة تحية للبلدة والعائلة ، كافأها الحضور بالتصفيق الحاد . ثم بدأ السجال : مبارزة زجلية بين الرجلين ، ثم العودة إلى مديح العائلة وتعداد مناقب العريس . بدأ بعض الشباب والصبايا يصعدون إلى المنصة ويشكلون حلقات دبكة . قال جمال لوالده :

– الأستاذ منير بيعرف يدبك .

– صحيح؟ طيب تفضل ، شارك الشباب .

قال الوالد بحماسة .

– لا معلش ، من زمان ما دبكت ، وبعدين صعب أجاري الشباب والصبايا بخطواتهم .

قلت مبتسما .

لم أحضر عرسا فلسطينيا منذ سنين طويلة ، ولم أشاهد دبكة حية منذ عقود . كانت خطوات الشباب والصبايا واثقة ، متمرسة وحركاتهم أصيلة غير مصطنعة ، تنم عن تقليد متوارث لا تدريب ميكانيكي .

فجأة هب أبو جمال واقفا واتجه إلى المدخل ، ثم عاد مصطحبا ثلاثة أشخاص بثياب عسكرية ، واتجه بهم إلى مقاعد ثلاثة كانت قد حجزت لهم مسبقا إلى جانبه على الناحية الأخرى من مكان جلوسي . ارتبكت ، وبدأت أتململ . لم يلاحظ أحد ما كنت أعانيه ، فقد كان جمال ووالده

مشغولين بالترحيب بالضيوف ومجاملتهم . وقفت وبحثت عن كرسي في الصفوف الخلفية .حاولت التركيز في حركات راقصي الدبكة ، لم يفلح هذا في تخفيف إحساسي بالضيق ، وتفاقم حنقي حين رأيت أحد الضباط الثلاثة ينضم إلى الراقصين ويحاول تقليد حركاتهم بحماسة .احتفى به الراقصون وحاولوا مساعدته في تعلم الحركات .

فجأة بدأ البعض من حولي يتهامسون ، ثم ارتفعت الهمهمات ، ورأيت أبو جمال يهب واقفا ويصرخ :

– تعال يا بنيي الله يرضى عليك . تفضحناش بهالليلة الله يسترك .

كان يتحدث إلى شاب شق طريقه إلى المنصة ، لم أفهم بالضبط ما يدور ، ثم فجأة رأيته يخطف الميكروفون من أحد الزجالين .

– مساء الخير عليكم . مساء الوطن ، مساء العروبة ، مساء فلسطين . بدي أستغل هاي المناسبة السعيدة ، ووجود الناس الطيبة عشان أعلن إشي مهم .

بدأت أنظار الجميع تتجه إلى الشاب ، وأبوجمال وصل إلى المنصة وحاول اختطاف الميكروفون من يده بلا جدوى . ارتفعت الهمهمات بين الحضور ، وصرخ شخص من بين الحشد : إتركه أبو جمال ، خليه يحكي .

تابع الشاب حديثه :

– أنا محمود ، إبن عمه للعريس ، بحب أبارك له بعرسه وأتمنى له السعادة والهنا . أنا طلبت للتجنيد في الجيش الإسرائيلي ، جيش الاحتلال . وأنا من هون بحكي للعالم كله : مش رح أخدم بجيش الاحتلال ، اللي بحتل أرضنا وبقتل إخواننا . أرفض أمر التجنيد وأعلى ما بخيلهم يركبوه .

علا الهتاف ، لكن لم يشارك فيه الجميع . البعض أعلن استنكاره والبعض طأطأ رأسه . حاولت البحث بنظراتي عن الضباط ، لم أجدهم . سمعت أحدهم ينادي اسمي ، كان جمال .

– تعال تعال .

– خير؟

– خلينا نمشي بسرعة ، يمكن تصير أحداث هون ما بدي تتمشكل .

تبعته إلى حيث تركنا السيارة ، أدار المحرك واتجهنا عائدين إلى حيفا .

كان جمال صامتا ، وبدا مهموما . لم يتحدث كثيرا خلال الطريق . هممت بطرح بعض الأسئلة عليه لكني تراجعت . لا أريد أن أثير قضية إشكالية معه . لم تفارقني ملامح الشاب الواثقة ، شجاعته ، كلماته ، حماسته . هو أيضا درزي ، ملزم بترتيب أقره شيوخ الطائفة منذ زمن بعيد بالخدمة في الجيش الإسرائيلي . بل هو من العائلة نفسها ، ابن عم جمال . لكنه

رفض ، وهو يدرك عواقب ذلك . ربما اعتقل ، بل سيعتقل بالتأكيد كما أعرف من حالات سابقة . وحين يخرج من السجن سيضيقون عليه في الدراسة والعمل .

لم أستطع مقاومة فضولي أكثر .

- محمود هذا ابن عمك ، صح؟

قال بأسف : ضيع مستقبله .

أردت استفزازه :

- بس أراح ضميره .

لم تعجبه ملاحظتي .رأيت هذا في ملامح وجهه . لم يرد تابعت استفزازي .

- برضه مش سهل الواحد يشارك في قتل أبناء وطنه .

نظر إلي . هل كانت في نظرته عدائية؟ أسف؟ عتب؟ لم أستطع أن أحدد ذلك بالضبط .

- إسمع . اللي بدو يبيع وطنية مش صعب أبدا عليه . خاصة اللي ما عاش ظروفنا . الكل تخلى عنا .العرب ، الفلسطينيين ، العالم . متصور كيف كان وضعنا لما فجأة أغلقت كل الأبواب علينا ، ولقينا حالنا وحدنا في دولة بتعادينا ، وما بنعرف إشي عن نواياها؟ شو بنقدر نعمل؟ ذقنا الأمرين في السنوات الأولى ، وما حدا كان داري عنا . وبعدين شفنا إنا لازم نعيش ، لازم نتعايش مع الواقع الجديد . أنا طبعا ما كنت انخلقت ، بس أهلي حكولي .

قاطعته : إنت بتحكي عن النكبة صح؟ واللي بتحكيه صحيح ، بس كان عالكل ، هيك كان وضع الجميع ، والأغلبية رفضوا الخدمة في الجيش . يعني اللي بخدم اختار انه يخدم ، ولا لا؟

هز رأسه . لم يعجبه الكلام .

- الكل بيخدم ، بشكل أو بآخر ، حتى المتطرفين قوميا . بيدفعوا ضرايب للدولة ، بيبنوا اقتصادها . صاروا جزء عضوي منها . بعرف بشو بتفكر ، الدم ، الحروب ودم الأخوة . الكل ضالع في الدم ، إشي بشكل مباشر وإشي بتمويل الحرب بعملهم وضرايبهم . أتركني من الشعارات ، أنا بدي أعيش وأولادي يعيشوا ويبنوا مستقبل . صعب توخد فرصة هون بدون ما تخدم في الجيش .

لم أقتنع تماما بما قاله . صحيح أن أجيالا ولدت وشبت بعد النكبة ولم يكن تفكيرهم يتجاوز الهموم المعيشية اليومية ، بناء بيت ، الزواج والإنجاب ، وكان العمل اليدوي الطريق الأقصر إلى كل هذا . لكن الوضع تغير الآن . سمر درست الهندسة المعمارية ، والدها محاضر في جامعة حيفا وأختها الصغرى تدرس الطب . معظم الذين قابلتهم في حيفا إما محامون أو خبراء في حقل نظم المعلومات أو يحملون أي شهادة أخرى ، ينافسون اليهود على الوظائف بجدارة . وحيفا ليست استثناء ، هذا الوعي بدأ يتبلور لدى العائلات في جميع أنحاء البلاد .

هو وضع طارئ بالتأكيد ، وقد جاء نتيجة المعاناة التي تكبدوها في العقود السابقة ، محاولات التجهيل ، سد الطرق في وجوههم ، وتوجيههم نحو سوق العمل اليدوي ، لكنهم في النهاية وعوا بما يجري وتداركوه . لن أناقش جمال في هذا ، هذه معركته ، والخيار خياره وحده إن كان يريد أن يخوضها يوما .

أوصلني للفندق وغادر . توجهت الى الاستقبال وسألت بلهفة إن كان أحدهم قد حاول الاتصال بي أو ترك لي رسالة . صمت البحر . صعدت إلى الغرفة رفقة حزني وغيابها . أحسست بنوع من الراحة الغريبة بسبب ما حدث في الدالية ومغادرتنا العرس في ساعة مبكرة . الآن أستطيع أن أتفرغ للانتظار والاحتراق وتعداد الدقائق التي تمر دون أن أسمع رنين الهاتف يبشر بالاحتمالات . كل رنين جديد يحمل معه وعدا ، لا يدوم سوى لحظات ، لحين اختطافي السماعة وسماعي صوت المتحدث ، لكن في تلك الثواني القليلة تزهر في قلبي حدائق وتبتسم شموس وتحلق نوارس . أتعجل اختطاف السماعة وأتمهل في سماع الصوت ، أخطو خطوات متعجلة إلى الأمام وأتراجع أخرى إلى الوراء . أريد أن أعرف هوية المتصل ، وأخشى أن لا يجلب لي صوته الفرح الذي أنتظر .

أقف وراء النافذة وأتأمل مشهدي المفضل . أستطيع أن أبقى في ذلك الوضع إلى الأبد ، أحدق في السفن الراسية في

الميناء وأضواء المدينة ، أتأمل البحر في ظلامه الذي يخفي أسرارها .

لا يرن الهاتف ، ولا أمل الانتظار . يمضي الوقت ، أفتح زجاجة من النبيذ الأحمر ، وأسكب قليلا منه في كأس ، أرتشفه ببطء . لم يتبق من إقامتي في هذه المدينة الكثير ، سأغادرها بعد أسبوع على الأكثر إلى بلدتي في الضفة الغربية . عائلتي هناك تنتظر ، وأنا متلهف لرؤية الجميع ، خاصة والدتي التي تعاني أعراض الشيخوخة . رأيتها قبل سنة ، وكنت شاهدا على البوادر الأولى لغياب الذاكرة . لم يكن وضعها خطيرا ، فقد كانت تتعرف على الجميع وتتذكر أسماء الأبناء والأحفاد ، لكني بدأت أحس بأن شيئا ما في حديثها يخبو . بدأت أحاديثها تفقد تلك الحيوية المشوبة بالمشاعر والانفعالات ، وأصبحت معظم قصصها وحكاياتها مكررة . قبل شهور بدأ الوضع في التدهور . الماضي يأخذ تدريجيا مكان الحاضر والمستقبل في أحاديثها واهتماماتها . أصبحت تبحث عن الرفقة وسط من ماتوا منذ عقود ، تتحدث عنهم ، تناجيهم ، تستحضرهم . لا أدري ما سيكون شعوري حين ألتقيها ، وكيف سيكون رد فعلي لو لم تعرفني . في آخر مكالمة هاتفية نادتني باسمي ، ولكني علمت لاحقا أن وعيها يتأرجح بين حالات عدة . سأنتهي من ارتباطاتي هنا وأحث الخطى إليها ، لعلي أحظى بآخر حضور لوعيها . أتعجل لقاءها وأتهيب

منه . حذرتني أخواتي ، وطلبن مني أن أعد نفسي للصدمة .

رنين الهاتف . اللهفة تطير بي إليه ، أخطف السماعة .

- ألو .

لا ، لم تكن هي . كانت المتحدثة رانية التي التقيتها صباح اليوم في يافا .

- مساء الخير ، عندي خبر حلو .

- أهلا رانية .

- أمسيتك في يافا جاهزة ، حكيت مع صاحب المقهى ورحب . بحاجة ليومين حتى يتصل بالمهتمين ويعلن عنها في فيسبوك ، يعني مساء الجمعة ، الساعة سبعة ، مناسب؟

- مناسب جدا ، شكرا رانية .

- ولو ، شكرا إلك . بتعرف تيجي لوحدك على يافا ولا أمر أوخدك؟

- لا بعرف طبعا ، بروح بالقطار زي اليوم الصبح . ابعتيلي عنوان المقهى على فيسبوك .

- حاضر . الصبح بيكون عندك . تصبح على خير .

- تصبحي على خير .

تفقدت الماسينجر ، لا رسائل ولا نشاط . هل أطوي الصفحة؟ ما أصعب هذا السؤال ، وكم هي مؤلمة الإجابة عليه .

أطفأت النور ، وحاولت أن أستدعي النوم بالموسيقى .

- ١١ -

أفقت وبي رغبة بالبكاء ، وشوق جارف لرؤية أمي . هي على بعد ساعة بالسيارة ، وسألقاها قريبا ، لكن لقائي بها سيكون مرتبكا هذه المرة . هل ستتعرف علي يا ترى؟ وكيف يمكن أن يكون رد فعلي لو لم تفعل؟ كيف سأتقبل أن أحس بالغربة وأنا بين ذراعيها؟ وماذا سأفعل بتاريخ أمومتها ، عواطفها المتأججة دوما؟ لم تكن يوما تحاول أن تخفي مشاعرها أو تضبط انفعالاتها أيا كانت ، حتى حين تغضب فغضبها جارف . كيف لي أن أتعود على برودها وحياديتها المحتملة إن كانت الذاكرة قد أنهكت؟

دموعي تتساقط وأنا أتخيل المشهد المؤلم . أحث الخطى إليها ، أطوي المسافات ولا أقترب . تتعثر خطاي في متاهات لا تحملني إلا إلى أخرى . أمي ، أبحث عن صورتك في ذاكرتي قبل انتكاس الذاكرة فأتوه . أتوه عنك الآن وتتوهين عني ويشردنا اغتراب الفصول . أمد يدي الآن باحثا عن فضاء التقيك فيه ، ألوح لك من بعيد ، أتجسد رضيعا يحبو إلى حضنك عبر أشواك الزمن ، ولا ألقاك . تطيرين بكيانك نحو

البدايات ، تعودين وتعيدينني إلى الرحم الأول ، تتوهين عني وأنا أمام ناظريك وأتوه عنك وأنت تتربعين على عرش وجداني . أي المعجزات تقدر أن تعيدك إلي وتعيدني إليك؟ وما نفع الآلهة إن لم تقهر قوانينها السرمدية؟ ولم تبذرنا في خمائل الكون وتتركنا نورق حبا وفرحا واخضرارا ومعنى ، إن كانت ستقطف وعينا العامر بتاريخنا وتعبث به على موائد العدم؟

أمي! كلماتي اليباب لا تعدو أن تكون فعل تعويض يائس لأني عاجز أن أجدك في هذه المتاهة . لا ، ليست الجغرافيا ، فأنا منك على بعد حضن ، ولا إيقاع الراهن ، بل قوانين أعصى على التطويع وأكثر صلفا ويقظة من أن أغافلها . . .قوانين خطفتك من مداري وطوحت بي خارج ملكوتك . قوانين لا طاقة لنا بها . يا للقهر! يا للعجز! يا لدموعي المستلبة وقلبي الجريح!

كانت دموعي قد تحولت نشيجا حين رن جرس الهاتف . حاولت عدم الرد ، لكنه بقي يرن بعناد . رفعت السماعة وأنا أحاول السيطرة على صوتي :

– صباح الخير .

كانت أمل على الناحية الأخرى .

– صباح الخير أمل .

– مالك؟

جاءني صوتها مصدوما .

- لا ولا إشي .

- إيش ولا إشي؟ إنت عم تبكي! شو صار .

لا فائدة من الإنكار .

- إمي .

- مالها؟ خير؟

- مريضة ، ومشتاق لها كتير .

- طيب شو المانع؟ مش في الضفة هي؟ ليش ما تروح تزورها؟

ماذا أقول لها الآن؟

- الموضوع معقد شوي .

- مش فاهمة! ليش معقد؟

- خايف .

- من شو؟

سألت باستغراب .

- من لقائها . إمي ما عادت إمي . بدأت تفقد ذاكرتها تدريجيا وخايف ما تعرفني .

تنهدت أمل ، ثم اقترحت أن أزورها في أقرب وقت .

- اليوم قبل بكرة .

قالت ، ثم تابعت : أنا بتصل فيك من حيفا ، نمت عند أهلي ، وحابة أشوفك .

- شو رأيك تمري عالأوتيل نفطر سوا؟

- شكرا ، أنا أفطرت ، بس بناخد قهوة مع بعض ، نص ساعة بكون عندك ، وبنحكي .

وضعت السماعة ، ونهضت . اغتسلت وارتديت ملابسي ونزلت إلى المطعم . جلست إلى طاولة ، جاءني شاب خمنت من ملامح وجهه أنه عربي :

- Tea or coffee, sir?

- شكرا ولا إشي ، رح أوخد إسبريسو بعد الفطور .

تعمدت الحديث إليه بالعربية .

ابتسم ورد : على راحتك . إنت عربي يعني؟

- نعم ، عربي .

- مع إنه مش مبين على شكلك .

- يوسي .

نادته زميلته :

- كين .

رد بالعبرية :

- إسمك يوسي؟ إنت مش عربي يعني؟

قال ضاحكا : لا عربي أبا عن جد ، واسمي يوسف ، بس هون بسمي حالي يوسي للتسهيل على الزبائن اليهود . عن إذنك .

- تفضل .

لم أتوقف عند الوضع ، هو مألوف تماما لي ، ولا أجد فيه ما يستحق التوقف عنده . هم يتعايشون مع معادلات توازن قوى تفرض عليهم شيئا من البراغماتية ، أعرف أن الكثيرين يصدرون عليهم أحكاما أخلاقية ، والبعض يخونونهم ، لكنهم لم يكونوا في وضعهم يوما .

انتهيت من الإفطار بسرعة وتوجهت إلى اللوبي لانتظار أمل . لم تتأخر .

- أهلا .

مددت يدي إليها مبتسما .

ناديت النادلة وطلبت فنجاني إسبريسو .

- كيفك؟

- منيح .

- لا مش منيح كتير ، ما دام صحيت بتبكي .

- مش سهل علي أتقبل الوضع .

- الله يكون بعونك ، أنا بعرف هذا الوضع ، جدتي توفيت من سنة ، في أواخر أيامها ما كانت تعرف حدا . بعرف قديش صعب ومأساوي الوضع .

جاء يوسي ، أو يوسف ، بالقهوة . وضعها أمامها ، وابتسم لي .

- تفضلي أمل .

- شكرا .

تناولت الفنجان ،أخذت رشفة .

- معك جواز سفرك؟

- آه ، ليش؟

- أعطيني اياه أشوف .

- خير؟

سألت وأنا أناوله لها .

تصفحته بسرعة .

- على شو بتفتشي؟

- إخص .

قالت .

- شو لقيتي؟

- إسمع ، أنا اتصلت بجمال بعد ما حكيت معك ، طلبت منه يوصلك لطولكرم بسيارته . قال لي مش رح ينفع .

- لا مش ضروري يوصلني ، بروح بسيارة أجرة .

- لا مش رح تقدر .

_ ليش؟

سألت باستغراب .

- عشان ختموا لك على جوازك ، ممنوع تدخل الضفة .

لم أستوعب للوهلة الأولى .

- شو بتقولي؟

- فيه ختم على جوازك إن التأشيرة صالحة لإسرائيل

فقط ، ممنوع تدخل أراضي السلطة الفلسطينية .

صرخت : إخوات الشرموطة .

احمر وجه أمل ، لا من الكلمة النابية التي استخدمتها ، كما اتضح لاحقا .

– آسف .

قلت .

– أنا آسفة .

– ليش شو ذنبك إنتي؟

نظرت في عيني ، ثم أطرقت بنظراتها إلى الأرض .

– مالك؟

– جمال هو اللي ختم لك الجواز .

– مش معقول!

قلت بغضب .

ثم تداركت : لا معقول طبعا . هو موظف أمن ، وهاي شغلته . ولا شو بدي أنتظر منه؟

كانت نبرتي عدائية .

– أنا آسفة كتير . هو قال ما كان معه خيار ، عشان عرف إنك من الضفة ، وكان مفروض يمنعك تدخل إسرائيل عشان جوازك بريطاني . فيه هيك قانون هون . بعدين اختار أهون الشرين .

– أهون الشرين؟ يخلف عليه .

قلت ساخرا .
ساد صمت ثقيل ، ثم قطعته أمل فجأة :
- إسمع أنا رح أدخلك عالضفة .
نظرت إليها باهتمام : كيف؟
- بسيارتي ، احتمال كبير ما يطلبوا جوازك ، نمرة سيارتي إسرائيلية وإنت شكلك مش مبين عربي ، بتزبط بظن .
أعجبتني الفكرة في البداية ، ثم فترت حماستي .
- لا في خطر عليكي لو كشفونا .
- ما تخاف ما بيصير إشي علي .
لست واثقا تماما . واضح أنها تحس بالذنب ، وتريد أن تقدم لي لفتة اعتذار بسبب ما فعله زوجها ، ولكن هل أقبل؟ وما هي خياراتي إذا لم أقبل؟ أن لا أرى عائلتي؟ لن أستطيع احتمال ذلك .
- إيمتى بتحب نروح؟
- في عندي أمسية في يافا الجمعة ، شو رأيك السبت؟
فكرت ، ثم : لا بلاش السبت ، جمال بيكون مجاز ، ما بدي يعرف . الأحد منيح؟
- منيح .
بعد فترة صمت ، كانت تنظر إلي خلالها بشكل أوحى لي وكأن في جعبتها شيئا تريد البوح به .
- إيش في أمل؟

قالت مبتسمة : جاهز تخرج مشوار؟

- على وين؟

- بحكيلك في الطريق . يلا قوم إذا ما عندك شي .

نهضنا ، وغادرنا الفندق إلى حيث تركت سيارتها في أحد الشوارع الجانبية .

- بتعرف؟ أنا خلصت روايتك . بدي أناقشك فيها بعدين . الإشي اللي نخر في روحي فجأة وأنا أقرأ كان لما ديفيد بيسأل : بيت مين هذا اللي ساكنين فيه؟ وين أصحابه؟

كنا قد وصلنا السيارة ، فتحتها وأخذنا مقاعدنا فيها ، وتابعت أمل حديثها : المشهد بالنسبة إلي كان deja vu . مارر علي .

قلت ، دون اهتمام كبير : مارر علينا كلنا .

قاطعتني : لا ، أنا وضعي غير .

أثارت عبارتها اهتمامي ، نظرت إليها متسائلا : كيف غير؟

أدارت محرك السيارة وانطلقت : أنا وعائلتي ساكنين في بيت مش إلنا ، متل ديفيد تماما .

صدمني التشبيه : كيف ممكن تكوني متل ديفيد أمل؟ إنتي فلسطينية ، بنت المدينة ، وبيوتها بيوتك .

هزت رأسها : الموضوع أعقد من هيك ، البيت اللي أنا وعائلتي ساكنين فيه إله قصة .

- كل البيوت إلها قصص .

- لا هذا قصته غير . قربنا نوصل عموما .

- نوصل وين؟

- بيت أهلي ، بدي أوريك البيت وأحكيلك قصته .

اقتربنا من حدائق البهائيين المتدرجة من جبل الكرمل حتى البحر .

أوقفت أمل السيارة وترجلنا ، ضبطتني أنظر باتجاه البحر . البحر هو قبلتي ، دائما وأبدا ، في كل مدينة بحرية أدخلها .

- إنت كمان مسحور بالبحر متل إمي؟

- إمك مسحورة بالبحر؟

ابتسمت .

- لما أبوي قال لها ، بعد ما تجوزوا ، لقيت بيت رح يعجبك ، بدي أشتريه . كان أول سؤال سألته : بيطل عالبحر؟ هاي البيت قدامك ، بيطل عالبحر .

التفت إلى حيث أشارت فرأيت بناية حجرية من ستة طوابق ، تعود إلى زمن آخر ، ربما ثلاثينيات أو أربعينيات القرن الماضي ، مع أن حجارة جدرانها لا تشي بقدمها . تبدو وكأنها بنيت من عشرين أو ثلاثين سنة . المعمار عربي طبعا ، والجدران تخفي خلفها حكايات . سندخل وسنستمع إلى إحداها ، بينما تبقى الكثير منها حبيسة جدران بنايات أخرى يسكنها غرباء أتوا من مدن أخرى وزرعوا هنا حكاياتهم . ماذا يحدث بعد أن ينام الغرباء هنا والغرباء هناك ، في مدن استضافتهم ولم

ترحب بوجودهم؟ هل تنبت حكاياتهم في ليل المكان وتطالب الحكاية الأخرى بحق الاكتمال ، في منشئها؟ وهل تتعايش الحكايتان بينما يغط أصحابها ، هنا وهناك ، في نومهم؟

صعدنا معا بضع درجات تؤدي إلى شرفة صغيرة ، ثم فتحت أمل الباب ودخلنا .

– في أي دور شقتكم؟

– في الدور السادس .

تابعنا صعودنا .

– ما فيه مصعد إعذرني .

قالت أمل لاهثة .

– لا أنا متعود ، شقتي في لندن في الدور الثالث ، وما في مصعد كمان .

وصلنا باب الشقة ، أخرجت المفتاح من حقيبتها ، فتحت الباب ودعتني للدخول : تفضل ، ما في حدا ، أهلي مش هون .

دخلت ، وقادتني إلى الصالون مباشرة . لفت انتباهي انخفاض سقف الغرف .

– غريب .

– إيش؟

– الغرف زمان ما كان سقفها منخفض هيك .

نظرت إلي أمل مبتسمة : ملاحظتك في محلها . شركة عميدار الاستيطانية ، بعد ما استولوا على البناية قسموا كل

دور إلى دورين ، هيك ضاعفوا عدد الشقق وباعوها .

تأملت جدران الصالون ، رأيت لوحات قديمة عليها آيات قرآنية ، وأخرى كتب عليها «القناعة كنز لا يفنى» .

أشرت إليها : هذول اللوحات قديمة ، لقيتوهم هون ، صح؟

قالت : لا ، أبوي اشترى الشقة من عائلة إسرائيلية ، يهودية ، هن كانوا أول من سكنوا فيها . لما غادروها ما تركوا فيها إشي . أول ما سكنوا أبوي وإمي جارتنا ، إم يوسف ، جابت لهن هاي اللوحات ، وقالت إنها كانت أخدتها من الشقة قبل ما تسكنها العائلة اليهودية ، واحتفظوا فيها عندهن ، على أمل يرجعوا أصحاب البيت وياخدوها . لما أهلي سكنوا الشقة قالت إم يوسف لإمي : خديها ، خليها بعهدتك .

فتحت أمل باب الصالون ، كان خلفه شرفة صغيرة .

– هاي الغرفة كانت غرفة نوم أبو طارق وإم طارق . طارق كان يقعد هون عالبلكون ، تحت الشباك ، يدرس بعد الظهر .

– إيش عرفك؟ إنتي التقيتي حدا من العيلة؟

– ما أنا جاييتك بالحكي .

قالت مبتسمة .

– مرة التقيت في مؤتمر بصبية إسمها أميرة شبلاق ، تحدثنا ، هي من سكان القدس ، وعرفت منها إنها أصلا من حيفا . جدها وجدتها وأعمامها كانوا ساكنين هناك . وين؟ سألتها . قالت لي في شارع عباس . سألتها إذا بتعرف رقم

البناية ، لما سمعت جوابها رجليي ارتخوا ، كنت رح أوقع عالأرض . هذا البيت اللي إحنا ساكنين فيه .

قلت لها ، هي كمان تأثرت ، اتطلعت علي كإنها مش مصدقة . قعدت أوصف لها بالبيت ، وهي تحكيلي ذكريات وصلتها من أبوها وأعمامها ، وبعدين قلت لها : تعالي زورينا في البيت . تطلعت لي كمان مرة بنفس النظرة اللي مش مصدقة ، وسألتني : جد بتحكي؟ قلت لها : طبعا جد بحكي ، البيت بيتك . هاي عبارة دايما بنقولها للضيوف عشان ياخدوا حريتهم ببيوتنا ، بس أنا فجأة حسيت إنها مش عبارة مجازية ولا عبارة مجاملة . البيت بيتها فعلا ، كان بيت جدها ، وهلا بيكون بيت أبوها وأعمامها .

– هاي رح تكون أول زيارة إلها للبيت ، صح؟

– من جوه آه ، بس هي حكت لي بعدين إنها تزوجت واحد أصله من حيفا وأهله لسة عايشين فيها ، تعرفت عليه في أميركا ، وفي يوم إجو مع بعض زيارة . لما وقفت السيارة حست إن المكان مألوف ، من وصف أبوها وأعمامها إله . ليش جينا هون؟ سألته . قال لها هون بيتنا ، في شارع عباس . لما سمعت الإسم صارت تتلفت في الشارع ، بعدين شافت البناية ، وبلشت تصرخ . قالت له : لا أنا بيتي هناك . ساعتها حست إن الشنط كان لازم تروح عالبيت هداك ، اللي على بعد ٢٠ متر مش أكتر . لكن طبعا حصل أكم إشي ، والبيت ما عاد البيت .

تابعت أمل روايتها . قالت إنها روت لأميرة كيف أن والدتها كانت تنهرها كلما قالت «بيتنا» ، وتقول لها : لا مش بيتنا ، هذا بيت أبو طارق شبلاق ، إحنا ساكنين فيه بس ، لحتى يرجعوا . لم تغير الوالدة أيا من معالم البيت ، كل ما فعلته على مدى عقود هو أنها طلت الجدران بلونها الأصلي نفسه من فترة لأخرى .

حضرت أميرة في أحد الأيام لزيارة بيت جدها ، طافت في الغرف ، وبدأت تعيد توطين الحكايات التي سمعتها من العائلة . فجأة وبينما هم يجلسون إلى طاولة الغداء ، وقبل أن يبدأوا الأكل إذا بأميرة تقول متنهدة : آه لو يقدر عمو طارق يزور البيت .

سألتها الوالدة وهي تضع في طبقها ورق العنب والكوسا المحشي : وليش ما ييجي؟ أهلا وسهلا فيه في أي وقت ، البيت بيته . مرة أخرى ارتبك المجاز في الآذان . فجأة أخرج الوالد من جيبه مفتاحا وقال : شوفي يا بنتي ، هذا مفتاح البيت ، وصليه لعمك طارق ، وخليه ييجي في أي وقت ، يفتح الباب ويدخل .

قالت بتأثر : الله يخليك عمو . بس شو رأيك توصل له العرض بنفسك؟

سأل الوالد : هو وين عايش؟

– في لندن .

صرخت أمل في جذل : أنا عندي سفرية للندن الأسبوع الجاي وبدي أقابله . بتعطيني رقم تلفونه؟

تابعت أمل روايتها . حين وصلت لندن اتصلت بطارق ، كانت ابنة شقيقه قد أنبأته بزيارتها . دعاها إلى بيته في High Street Kensington. . في الموعد المحدد وصلت أمل إلى شقة في الطابق الثاني من إحدى البنايات في حي لندني أنيق ، وحين رأت الاسم على البيت : «طارق شبلاق» ، خفق قلبها . هنا يقيم شخص كان يفترض أن يقيم حيث هي وعائلتها . أحست أنها وعائلتها سرقوا حياة هذه العائلة ، وأن الذكريات التي عاشتها في البيت ، والصداقات التي كونتها في الحي في سني الطفولة مسروقة من أميرة وأبناء وبنات أعمامها .

قادها ابن طارق إلى الصالون حيث والده في الانتظار . نهض طارق مرحبا واحتضن أمل .

تأملت أمل جدران الصالون ، كانت هناك لوحات متنوعة ، ثم ، فجأة ومن بينها جميعا ، تسمرت عيناها على واحدة . كانت صورة البيت في شارع عباس .

– تفضلي أقعدي .

– قبل ما اقعد ، معي هدية بدي أقدمها . هديتين في الواقع .

أخرجت صورة مؤطرة للبناية :

– هي صورة حديثة . ما تغير في البناية إشي .

تأمل طارق البناية ، ثم قطب .

- لا تغير .

- شو؟

قال بحزن : إسم الشارع والرقم على المدخل كان بالعربي ، شوفي الصورة عالحيط؟ هون بالعبري . على كل حال ، يا ريت هذا كل اللي تغير . شو هديتك التانية؟

أخرجت أمل من حقيبتها مفتاح الشقة : تفضل ، هذا من بابا ، بيقول لك لما بدكم ترجعوا عالبيت ، في أي وقت ، رح نلاقي حل قانوني ، وبترجعوا لبيتكم .

ربت طارق كتفها وقال : رح نرجع يا بنتي ، بس مش عشان نسكن محلكن . إنتو شو ذنبكن؟ أنا مبسوط إنكن إنتو اللي ساكنين في بيتنا مش عائلة إسرائيلية . رح نرجع لما يرجعوا الكل ، ولحتى هذا يحصل ، ديروا بالكن عالبيت .

كان اللقاء في شهر شباط ، وبعد ثلاثة شهور ، في ذكرى النكبة ، في ١٥ أيار ، عاد طارق زائرا . كانت أمل قد رتبت له استقبالا أسطوريا : دعت كل من وصلت إليه من أقرانه الباقين في حيفا ، وسحرت له مشهدا أعاده بالذاكرة إلى طفولته .

بينما كنا نحتسي القهوة قالت لي أمل : بتعرف؟ الشعب الفلسطيني كله ممزق ، بس أنا كان نصيبي أكتر من الكل . بيكفيش بحس أحيانا باغتراب عن بيتي ، كمان زواجي كمل الخيوط ورح أنقل الاغتراب لأطفالي .

أحسست بقرب مفاجئ من أمل أحطتها بذراعي ، أما هي فأراحت رأسها على كتفي وبدأت دموع تتدحرج على وجنتيها .

مكثنا قليلا ، ثم أعادتني أمل إلى الفندق والمشاعر تتنازعني . أحسست أنني اقتربت منها كثيرا في الساعات القليلة الفائتة . حين انصرفت احتضنتها وشكرتها ، على كل شيء .

-١٣-

اتصلت بأختى سهى أبلغها بموعد حضوري .

– كيف إمي؟

– وضعها بيسوء كل يوم .

قالت بحزن .

– شو صار؟

– ولا إشي جديد ، بس ما بتوكل ، ونومها قليل .

زاد قلقي من الاحتمال الأسوأ . لماذا علي أن أنتظر إلى الأحد؟ من يملك حق الوقوف بيني وبين أمي؟

اللعنة على هذا العالم ، اللعنة على هذا الظلم! كنت أحس بغضب غير مسبوق ، أتمنى لو أحطم كل ما حولي .

لم يخطر ببالي حين غادرت المطار أن جمال فعلها . أحسست أنه أدرك أنني من الضفة ، وأن لي عائلة هناك ، وكنت أتوقع أن يمنعني من الدخول . في كل مرة أدخل فيها عن طريق المطار أجد نفسي وسط لعبة البوكر هذه ، وفي كل مرة كنت أكذب ، لكنها المرة الأولى التي أجد نفسي في مواجهة ضابط أمن عربي ، يعرف قصصنا ويستنبط الكثير من

المعلومات ومن طريقة الإجابة عن أسئلته . هو أدرك بلا شك ، وحاول أن يساعدني على طريقته ، لكنه زاد وضعي تعقيدا . كنت أفضل أن يمنعني من الدخول ، أنا الآن كمن يقتله الظمأ وبعضهم يقترب من شفتي بزجاجة ماء باردة ، ثم يسحبها قبل أن أرشف منها قطرة واحدة . سأدخل رغم أنف جمال وأسياده . حتى لو فشلت خطة أمل سأكرر المحاولة ، لن يمنعوني من رؤية أمي .

رن هاتفي منبها بوصول رسالة عبر الماسينجر . غريب أنني لم أتفقده حتى الآن ، لم أفكر فيها منذ الصباح . هل هذه الرسالة يا ترى منها؟

فتحت الماسينجر ، وجدت أكثر من رسالة ، لم تكن بينها واحدة منها .

«يسقط التطبيع!»

لم أتعرف على اسم مرسلها . اللعنة على تفاهتكم . هل زيارة حيفا ولقاء أهلي فيها مثل مصافحة بنيامين نتنياهو؟ الله يخرب بيت غبائكم!

تجاهلت الرسالة ، وحظرت مرسلها .

تفقدت رسالتي إليها ، لم تقرأها .

بلاش .

أحاول تعويد نفسي على غيابها ، وعلى احتمال خروجها من حياتي . تفاجئني المرة تلو الأخرى قوة حضورها ، ونحن لم

نلتق إلا مرات قليلة . أتجنب التفكير في الأسباب المحتملة لغيابها . أخرج من الفندق بنية الذهاب إلى وسط المدينة . عند المدخل ألتقي صديقي صلاح ، أسلم عليه بحرارة .

– أنا آسف غبت عنك مبارح ، انشاء الله ما تكون مليت .

صافحته مرحبا .

– لا أبدا ، كنت معزوم على عرس في الدالية .

سأل مستغربا : في دالية الكرمل؟ مين عزمك؟

رويت له القصة ، لم يعلق . أخرج من حقيبته هاتفا جوالا :

– هذا التلفون فيه شريحة محلية ، استخدمه براحتك ، أعطي رقمه للأهل والمعارف ، أسهل يتصلوا عليه .

شكرته بحرارة : تسلم يا عزيزي ، والله كنت مقطوع عن العالم وفكرت اليوم أنزل أشتري شريحة ، بس يمكن ما تزبط عالآيفون .

– لا مش ضروري ، هذا خليه معك لحتى تسافر .

– تسلم . تفضل نوخد قهوة جوا .

قال : لا بلاش ، خلينا نروح . بحب أعرفك على صديق إسرائيلي ، هو كاتب واحنا بنترجم كتبه العبرية للعربي وبننشرها .

كان الموعد على الغداء في أحد مطاعم المدينة . جاء الكاتب الثمانيني وبعض أصدقاء صلاح ، وقضينا ساعتين

معا . لم أتحدث كثيرا ، حيث كان معظم الحديث يدور مع الكاتب باللغة العبرية . تبادلت بضع عبارات مع بعض الحاضرين ، وبقيت أراقب الجو الودي ، والسلاسة التي تجري فيها الأحاديث مع الضيف اليهودي . حياة فلسطينيي الداخل وأعمالهم ، خاصة في المدن المختلطة كحيفا ، متداخلة بشكل طبيعي مع حياة اليهود العاديين ، ولا أثر للتوتر فيها . يختلف الوضع حين تشتعل الحرب على إحدى الجبهات العربية ، سواء في لبنان أو غزة . عندها تطفو المشاعر القومية على سطح وعي الطرفين وتخلق توترا . وفي أوقات السلم ، تتطوع المؤسسات الحكومية بتذكير الفلسطينيين بوضعهم من خلال إجراءات تميز ضدهم .

كان بين الحضور المحامي عصام ، أحد أصدقاء صلاح الذي يساهم في تنظيم أمسياتي في النادي الثقافي . استشرته في موضوع حظري من دخول الضفة ، قال إن أحد زملائه في المكتب محام يهودي لديه خبرة في هذه القضايا ، سيستشيره ويبلغني بالنتيجة .

بعد الغداء توجهنا إلى مكتب صلاح . كانت السكرتيرة مشغولة بترتيبات مشاركة دار النشر في معرض أبو ظبي . يحرص صلاح على المشاركة في معارض الكتب التي تقام في العواصم العربية ، يقيم علاقات مع دور النشر العربية ويعقد صفقات معها . يدخل آخر ما ينشر في بيروت والقاهرة إلى

حيفا ،ليروي ظمأ قراء الداخل للكتاب العربي .

– متى السفر؟

– والله لسة بننتظر التأشيرة ، تأخرت شوي .

أعطى بعض التعليمات للسكرتيرة ثم صعدنا إلى مكتبه في الطابق الأول .

أعد فنجانين من قهوة الإسبريسو في المطبخ ، ثم جاء حاملا الصينية ، وضع أحدهما أمامي .

جلسنا نشرب القهوة ونتحدث .

ناقشنا إمكانية ترجمة روايتي الأخيرة إلى العبرية . موضوع الرواية قد يثير فضول القارئ اليهودي ، لكن ترجمتها ستكون مكلفة ، ولا يمكن الاعتماد على المبيعات في تغطيتها . لم أكن متفائلا بنجاح المشروع .

أخبرته عن أمسيتي المقبلة في يافا .

– مين اللي بينظمها؟

– صبية من قرائي ، بالتعاون مع مقهى ثقافي هناك .

– بتحتاج نسخ لتوقيعها؟

– أكيد .

اتصل بالسكرتيرة وطلب منها تحضير ٢٠ نسخة .

– كيف إقامتك في الأوتيل؟

– ممتازة ، الغرفة مريحة ومطلة عالميناء ، ما بحلم بأفضل من هيك .

قلت مبتسما .

- مدير الأوتيل صاحبنا ، هو عربي من حيفا بعرفه من سنين ، إذا احتجت إشي إحكي معه مباشرة ، أنا وصيته عليك

- هذا الأوتيل ملك شركة إسرائيلية ، يهودية صح؟

- صح .

- ومديره عربي؟

- عادي .

- كثير فيه عرب في مناصب مهمة هون؟

- حسب مؤهلاتهم ، المؤهلين بيحصلوا على وظائف تليق بمؤهلاتهم ، وفي العقود الأخيرة صارت العائلات تهتم إنه أولادها يدرسوا ويحصلوا على مؤهلات . متطلبات السوق هي اللي بتحكم ، خاصة في القطاع الخاص .

هذا تطور نوعي في وضع الفلسطينيين في مدن وقرى الداخل ، يقابله تغير معاكس في وضع أهل الضفة . كانت العائلات في العقود الأولى بعد الاحتلال تحرص على أن يحصل أبناؤها وبناتها على شهادات جامعية ، ومن لم تستوعبهم جامعات الداخل كانوا يسافرون للدراسة في جامعات الدول العربية أو الأوروبية أو حتى إلى الولايات المتحدة . لم يكن نادرا أن تستدين العائلات لتمويل دراسة أبنائها ، فدراستهم من أولويات حياتها .

فتر الاهتمام بالموضوع في السنوات الأخيرة ، وفتر اهتمام الطلاب أنفسهم بالدراسة ، بل وتغيرت الأجواء الأكاديمية في الجامعات ، مع تغير الأجواء الاجتماعية . في الوقت نفسه قل عدد الطلاب الذين يدرسون في الخارج ، مع زيادة تكاليف ذلك بشكل لا تحتمله ميزانية العائلة الفلسطينية .

أرسلت رقم هاتفي الجديد إلى أمل عبر الفيسبوك ، وكذلك إلى شقيقتي . منذ الآن لن أكون مضطرا للبقاء حبيس غرفتي حين أكون بانتظار مكالمة . فكرت في إرسال الرقم إليها ، ثم غيرت رأيي . إن كانت معنية بالاتصال ستجد وسيلة لذلك .

- وين بتحب تروح؟ في عنا مشوار لعكا في أول يوم بفضى فيه ، وين كمان بتحب تروح؟

سأل صلاح .

- حسب وقتك ، بديش أضغط عليك .

- ما يهمك وقتي ، أنا بقدر أنظمه ، إحكيلي إذا بنفسك تزور أماكن محددة .

- تسلم ، خلينا نشوف عكا لما تسمح ظروفك وبعدين بنشوف .

عكا البحر والسور والأسواق القديمة وجامع الجزار . عكا التاريخ الذي يتردد صداه في أزقتها ، وعكا الالتصاق الحميم لأهلها بالمكان رغم التضييق ، تلاحظها في نكاتها وكلمات

أغاني فرق الغناء العكاوية .

ابن عكا يحلف «بغربته» إذا ذهب في رحلة إلى نهر يبعد عنها بضعة كيلومترات ، هذا ما رواه لي صديقي صلاح .

وفرقة «ولعت» العكاوية تغني :

لو شربوا البحر

لو هدوا السور

لو سرقوا الهوا

أو خنقوا النور

ما ببيعا لعكا

بالدنيا كلا

ما ببدل حارتي

ولا بقصور

المينا وكل البحرية

هيلا هيلا هيلا هيلا

شخاتيرا النايمة عالمية

هيلا هيلا هيلا هيلا

وشباكا الخضرا المضوية

سورا رح يبقى بقلبي دهور

أستأذن من صديقي ، يهم بإيصالي إلى الفندق لكني أشكره وأخبره أني أرغب بالتسكع في شوارع حيفا قبل العودة إلى الفندق .

أتوجه إلى ساحة باريس ، أتمشى في الساحة مستمتعا بشمس إبريل . أمارس الكسل على أصوله : أكل ومرعى وقلة صنعة . أختار مقهى قريبا من الساحة ، أجلس إلى إحدى الطاولات وأطلب زجاجة بيرة . أطلب من النادلة أن تلتقط لي صورة .

– هل أنت سائح؟

تسألني .

بماذا أجيبها؟ أأقول لها إنني سائح في وطني؟ هل أكرر أسلوب شخصيات غسان كنفاني وألقنها درسا في التاريخ الظالم والسياسة الغاشمة؟ لا أرغب بذلك ، هذه ليست ساحة مواجهة . أنا هنا ضيف في المقهى الذي تعمل فيه ، وهي تعاملني كضيف ، بلطف وكياسة ، تبتسم ، وتجامل . لماذا أختار لعبة أخرى بأدوار أخرى؟ أجيبها ببساطة :

– نعم أنا سائح .

– هذه مدينة جميلة ، يقصدها الكثير من السياح .

تقول لي وهي تعيد لي الهاتف الجوال بعد أن التقطت الصورة .

أشكرها ، تتركني مع بيرتي وأفكاري ، وتعود لعملها .

أقاوم التفكير فيها حتى آخر رشفة في الزجاجة الأولى . أطلب زجاجة بيرة أخرى ، ومع الرشفة الأولى ، تنهار حصوني .

أرسل لها رسالة أخرى . «أين أنت؟» .

هذه المرة تقرأ الرسالة ، في الحال ، وكأنها كانت تنتظرها على جمر . وترد!

«لا تسألني أرجوك! لا أرغب بالحديث عن الموضوع الآن . سأراك غدا . سأمر عليك في الفندق في الخامسة ونذهب سويا إلى يافا . أمسيتك في السابعة على ما أظن» .

ولكن من أين عرفت بالأمسية؟ وماذا يهم؟ ها هي بددت الغياب ، تباركت هذه البيرة العظيمة التي حرضتني على الفعل . بدونها كنت مترددا ، وهي كذلك . لم تتصل بي لكنها كانت تتمنى أن أفعل . لكن لماذا غابت؟ ولماذا عادت؟ ولماذا نلتقي؟ وماذا سيكون من أمرنا؟

مع نهاية الزجاجة الثانية كنت قد توقفت عن الأسئلة وقررت القفز إلى المجهول . سنلتقي ، ونمارس الحب ، ونتجنب الأسئلة . سنترك لزخم الرغبة أن يقودنا في أي اتجاه شاء . سنسلم قيادنا للريح ونتبع بوصلة الجنون . كأسك أيها العالم البائس! ها نحن نخرج لك ألسنتنا أيتها القوانين السرمدية .

هل أطلب زجاجة ثالثة؟ لا ، علي العودة إلى الفندق . أرغب بالاتصال بشقيقتي والاطمئنان على والدتي . أدفع الحساب وأغادر المقهى إلى محطة المترو . أول مرة استخدمته فيها كانت عام ١٩٦٨ ، كنت طفلا قرويا ، جئت إلى حيفا ضمن رحلة نظمها أحد أبناء البلدة . استأجر حافلة من

نابلس ، وأعلن عن زيارة إلى يافا وحيفا . الكبار لم يجرؤوا ، وهم الأكثر ظمأ لزيارة مدن الحلم . لم يجرؤوا على المواجهة ، فالمدن ليست المدن ، والسكان ليسوا السكان . ربما خافوا من انهيار الحلم ، فضلوا الإبقاء على الصورة نقية في الذاكرة . كان معظم المشاركين في الرحلة دون سن العشرين ، الفضول هو ما دفعهم للمغامرة . لا أذكر من حيفا سوى برنامج الزيارة الساذج : الدرج الكهربائي ، والقطار الكهربائي . طبعا ، فتلك كانت المرة الأولى التي نرى مثل تلك الأشياء ونستخدمها ، لنعود بعدها إلى القرية ونروي للأهل المتعطشين لسماع أي شيء عن مدن أحبوها وزاروها في زمن آخر ، وكان كل ما أمدتنا به التجربة هو الانبهار بدرج يتحرك ولا نصعده بل يصعد بنا ، وقطار كهربائي ، ينساب بسلاسة ودون أن يصدر الضجيج المألوف الذي كان يصاحب حركة القطارات في الأفلام المصرية القديمة .

وصلت المحطة وصعدت إلى القطار . نزلت في المحطة الأخيرة وتوجهت مباشرة إلى الفندق . حال وصولي الغرفة اتصلت بشقيقتي .

– كيف إمي؟

– مثل ما هي ، لا بتوكل ولا بتنام . طول وقتها بتحاور الأموات من العيلة ، عايشة في عالمهم . إنت وينتا جاي؟

– أنا رح أحاول الأحد .

-رح تحاول؟

سألت بعتاب .

- اتضح أن جواز سفري مختوم بمنعي من دخول الضفة .

- إيش ؟

سألت غير مصدقة .

- زي ما بقول لك ، اكتشفوا إني من الضفة ، وكانوا بدهم يرجعوني ، بعدين قرروا يسمحولي بالدخول بَس ممنوع أدخل الضفة .

- وكيف بدك تيجي الأحد؟

- صديقة رح تحاول تدخلني بسيارتها ، معها سيارة بنمرة إسرائيلية .

لم تطمئن شقيقتي ، هذه مغامرة غير مضمونة العواقب ، ولكني لا أملك خيارا آخر . متى كان الفلسطيني يملك خيارات؟ عليه أن يحاول تجيير المتاح ليخدم أحلامه . آه يا أمي ، هل ترحلين دون أن أراك؟ لو حصل ذلك لبقيت في داخلي غصة إلى الأبد . رحل والدي وأنا في الغربة ، لم أكن قد رأيته لما يزيد على سنتين . مر ربع قرن ولم أشف من وجع الفقدان بعد . إلى متى تتراكم أوجاعنا؟ إلى متى يتحكم الغريب في عواطفنا العائلية؟ يقنن أشواقنا ويضع القوانين التي تحكم لقاءاتنا بمن نحب؟ يجود علينا بنظرة وداع أخيرة أو لا يجود! العالم لا يدرك كل هذا ، هو يتعامل مع مفاهيم سياسية

مجردة لا تقترن بها كل هذه التفاصيل الحميمة : أمن ، حدود ، إرهاب ، استيطان ، قرارات! ونحن نبقى في وعي العالم مجرد أرقام وإحصائيات ، ضحايا على شاشات التلفزيون أو «إرهابيين» يسعون إلى الموت طوعا لأن الحياة لم تعد تثيرهم ، لم يعودوا يجدون جاذبية في برامج السينما والمسرح ورحلات السفاري . ونحن نتعايش مرغمين مع كل هذا ، البعض يحاول الاحتيال ، والبعض يهرب إلى عالم تحكمه قوانين أقل عبثية ، والبعض يبقى تحت رحمة قوانين القوة . لا نفكر في فلسفة خياراتنا كثيرا ، بل نسعى إلى تكييفها لتتسع لشيء من أحلامنا الصغيرة .

سآتي يا أمي ، سأرافقك في رحلتك الأخيرة ، ستنبت لي أجنحة وسأحلق فوق حواجزهم الشائكة وجدرانهم الإسمنتية ، سأبكيك ، وأبكي عجزي وحيرتي ، سأرطب ثراك بدموعي ، سآتي يا أمي ، سأكون هناك يوم ترحلين .

- ١٢ -

بقيت صامدة لأيام . أكثر من مرة كتبت ومحوت . أريده ولا أريد أن أنجرف معه . لا أستطيع ، لا أستطيع . هجرت الفيسبوك ، حتى أتجنب رؤيته وقراءة ما يكتب ، لكني كنت أفتح الماسينجر أكثر من مرة في اليوم . أهم بالكتابة إليه ، وأكتب فعلا ، ثم أقف مترددة ، بل عاجزة عن اتخاذ قرار . هل أضغط الزر وأرسل الرسالة؟ لم أفعل ، لكني ذهبت مرة إلى الفندق . لم أكن أنوي لقاءه ، أردت رؤيته فقط . اتصلت برقم غرفته ، ولم أكن أنوي النطق لو رفع السماعة ، لم يرفعها . هو ليس في الغرفة إذن . بقيت أنتظر في سيارتي غير بعيد عن مدخل الفندق . انتظرت طويلا ، وعيني مسمرة على المدخل . ثم وصل . جاء برفقة ذلك الرجل ، ضابط الأمن . لم أرتح لذلك . ماذا يريد منه؟ هل كل هذا اهتمام بكتاباته؟ وحتى لو كان هذا صحيحا ، فهل هو مهتم بها كقارئ أم ضابط أمن؟ انتابني القلق عليه . تلفت إلى الخلف ، كاد يراني ، بدأ قلبي يدق بجنون . لم يلمحني ، وتابع طريقه . دخل الفندق . هل أتبعه؟هل أفسد كل شيء؟ آه يا أبي! لماذا تقف حارسا على

أبواب قلبي؟ لماذا لا تتركني أطير كما العصافير؟ أنا في الخامسة والعشرين الآن ، أعمل ، مستقلة ماديا ، فلماذا لا أملك قراري؟ قمت بما عليك وأكثر ، فلماذا لا تتنحى الآن؟ ولماذا أحبك يا أبي إلى هذه الدرجة؟ لماذا لا أستطيع أن أتحداك؟ أن اقف في وجهك وأقول : هذه حياتي ، هذا قلبي ، هذا خياري! دفء مشاعرك يقتلني ، عناقك يخنقني ، قبلاتك الحانية لسعات مؤلمة يا أبي . تنح الآن ، أما آن لك أن ترتاح وتتركني في حضن غيرك؟

مسحت دموعي وأدرت المحرك . عدت إلى البيت خائبة ، كسيرة القلب . انهرت في فراشي . في اليوم التالي كنت قد قررت أن أرسل له رسالة وليكن ما يكون . كتبتها ، وهممت بأن أضغط الزر وأرسلها ، لكنه كان أسرع . وصلتني منه رسالة . أجبت في الحال . كنت قد علمت بأمسيته في يافا ، أنا أتابع صفحة المقهى على فيسبوك ، وأحضر بعض فعالياتهم ، رأيت الإعلان عن أمسيته . سأرافقه إلى يافا ونعود سويا . سأقضي الليلة معه . اتفقت مع صديقتي أستر أن أستعير شقتها لتلك الليلة . هي ستسافر لزيارة عائلتها في الكيبوتس ، وستسلمني مفاتيح الشقة . أصرت على أن تراه . ستسلمني المفاتيح حين نعود من الأمسية ومن ثم تغادر .علاقتي بها حميمة ، تعرف أسراري العاطفية وأعرف أسرارها . هي ربما أقرب زميلاتي في العمل إلي . لم أتحدث في الموضوع مع منير بعد لكن لا أظنه سيعارض .

وضعت قميص نوم وغيارا داخليا ومنشفة في حقيبة صغيرة وانطلقت . كان بانتظاري في اللوبي حسب الاتفاق . هب واقفا حين رآني وركض باتجاهي . حضنني وأمطرني بقبلات محمومة . تلفت مرتبكة ، هذه المدينة أصغر مما يتصور . لا أريد أن يرانا أحد من معارفي أو أفراد عائلتي في هذا الوضع .

– مجنون

ضربته براحة يدي على ظهره .

– آه مجنون ، هو إنتي خليتي معي عقل؟

ضحكت .

– إطلع جيب بيجامتك وغيار داخلي بستناك هون .

نظر إلي متسائلا :

– ليش؟

– بدناش ننام هون .

شرحت له الوضع ، لم يمانع . صعد وعاد بأغراضه ، وانطلقنا .

– فطرتني .

قلت ضاحكة .

– إيش؟

– أنا صايمة اليوم .

– ليش؟ رمضان مطول لسة .

– ما هو أنا أفطرت أكم يوم في رمضان ، بتعرف ، النساء بيفطروا بعذر شرعي ، لازم أصومهم خلال السنة .

– طيب ما تخافي ، البوس ما بيفطر .

– طيب يا شيخنا ، شكرا عالفتوى .

وضحكنا .

كنا في مزاج ضاحك طوال الطريق . ذاب الحزن في قلبينا ، تبخر بمجرد أن التقينا ، لم يعد له أثر .

– بتعرفي أصحاب المقهى منيح؟

– لا ، بس بحضر عندهم فعاليات أحيانا . شوي قوميين ، أعتقد صاحب المقهى من حركة أبناء البلد . نشيط سياسيا ، دايما بشوفه في المظاهرات .

– وإنتي بتشاركي في المظاهرات؟

– طبعا بشارك ، ليش مش من هالشعب أنا؟

– لا مش قصدي ، بس يعني مش الكل نشيط سياسيا .

– ولا أنا بقدر أعتبر نفسي نشيطة ، بس شاركت في كل المظاهرات اللي طلعت احتجاجا على حرب غزة اللي فاتت ، في حيفا وتل أبيب .

ابتسم .

قبل خروجنا من حيفا فاجأنا حاجز . توقفت . جاء شرطي ، ناولته الهوية ، وقدم له منير جواز سفره البريطاني . طلب مني أن أصف السيارة جانبا . فعلت . فتح الصندوق

الخلفي وتفحصه ، ثم أشار لي بالسير .

- ليش هيك عمل؟

سأل منير .

- شو؟

- يعني بقية السيارات ما فتشها ، بس فحص الهوية .

- أنا عربية حبيبي ، شو نسيت؟

- لا ما نسيت . بس شو ، حتى هون؟ فكرت التضييق علينا بس في الضفة .

- لا أبدا . في القضايا الأمنية ما في أي فرق ، في حيفا أو في رام الله ، بيعاملوك بنفس الطريقة إن ما كنت يهودي .

وضعت قرصا مدمجا (سي دي) في جهاز الستيريو ، وانبعثت موسيقى محلية . أعجب منير بصوت المغنية والأغنية .

- مين هاي؟ ما سمعتها قبل .

- إسمها سناء موسى ، من هون ، بتغني أغاني تراثية بأسلوب الجاز ، بحبها كتير .

- حلو صوتها ، وموسيقاها كمان .

في كل مرة أكتشف فيها أن أذواقنا تلتقي في شيء ما أحس بالسعادة . هنالك الكثير من الأشياء المشتركة بيننا ، خاصة فيما يتعلق بحسنا الجمالي . وضعت يدي اليمين على كتفه .

- ركزي في السواقة حبيبتي .

- ما تخاف ، مركزة . بعرف أسوق بإيد واحدة أنا ، مش قضية .

بقي قلقا ، لاحظت ذلك من حركاته . أنزلت يدي عن كتفه وأمسكت بها عجلة القيادة .

- هاي نزلت إيدي ، اطمأنيت؟ يا خواف .

- لا مش خوف بس أنا كنت خايف تفطري .

ضحكنا معا . حس الدعابة عنده يروقني أيضا . نضحك كثيرا أثناء الحديث . لاحظت هذا في رواياته أيضا ، لديه أسلوب في السخرية يجعلني لا أقاوم الضحك .

وصلنا المقهى ، أوقفت السيارة في شارع قريب ودخلنا . استقبلتنا فتاة ، خمنت أنها من نظمت الأمسية ، وقدمت منير لصاحب المقهى . جلسنا إلى طاولة نتحدث ، بانتظار الحضور . كان الوقت مبكرا ، وصلنا قبل موعد الندوة بساعة .

- أستاذ منير؟ مساء الخير .

تلفت ، كانت فتاة نحيفة محجبة .

- إسمي منال ، أنا من قرائك .

- أهلا منال ، تفضلي .

انضمت إلينا .

- حبيت أتعرف عليك ، جيت مخصوص من اللد .

- أهلا وسهلا فيكي .

دار الحديث عن روايتي منير الأخيرتين ، ثم تطرقت منال إلى موضوع حساس .

- متى رح تكتب عن المجتمع المعاصر وقضاياه؟ مشاكله الاجتماعية؟

- أكيد رح أكتب . المواضيع ما بتخلص .

- لكن هناك مواضيع أكثر إلحاحا .

ابتسم منير :

- مثل شو؟

- عنا في اللد موضوع بشغل ناس كتير خاصة النساء .

- إيش هو؟

- اللي بيسموه جرائم الشرف .

روت له عن حالات قتل النساء في اللد ، حالات غامضة في معظمها ، لا توليها الشرطة الاهتمام الكافي ، ولا تكشف عن ملابساتها . طالما كانت الضحية عربية فالشرطة تتعامل مع الموضوع بروتين لا يؤدي في النهاية إلى نتيجة ، والحالات تتكرر ، والنساء في رعب بانتظار الضحية القادمة . تحدثت منال عن نشاط خاص تشارك فيه مع فتيات جامعيات أخريات .

- عاملين برنامج لتشجيع نساء متزوجات ما أنهوا المدرسة على إكمال تعليمهم .

- برافو ، هذا مشروع عظيم .

قال منير بحماسة .

- لكنه خطير .

- خطير؟ ليش؟

تساءل بدهشة .

- عشان في ناس ما بدهم النساء تتعلم ، وإحنا بنشك إنهم وراء جرائم القتل .

كان الموضوع مألوفا لدي ،لكن منير بدا مصدوما .

- النساء مسجلات في برامج تعليمية بالسر ، واحنا بننظم دورات التقوية في مكان سري ، وهذا أحد أسباب خطورته . لو كان علني ما كانوا رح يسمحوا فيه ، وهيك لأنه بالسر رح يبدأوا يشكوا بأشيا تناسب خيالهم المريض لو كشفوا لقاءاتنا السرية .

لم يصدق منير ما يسمعه ، بدا مذهولا أن يحدث هذا هنا ، في القرن الواحد والعشرين .

- طيب شو خص الشرف في الموضوع؟

- إسألهم .

بدأ ضيوف الأمسية يتوافدون ، واضطررنا لقطع الحديث لأن منير دخل في أحاديث مجاملة مع بعضهم . تبادل مع منال أرقام الهواتف ووعدت بإضافته لمجموعة مغلقة على فيسبوك ، تقتصر على أعضاء «النادي السري» من النساء المشاركات في الدورات ، من طالبات ومدرسات .

طلبت من منال أن تضيفني للمجموعة ، ووعدت بالمشاركة في النشاطات .

لم يكن المقهى كبيرا ، لذلك لم يلبث أن امتلأ بالقادمين لحضور الأمسية . توجه صاحب المقهى إلى منير الذي كان يتحدث مع رانية ، وأبلغه أنه سيعلن بدء الندوة .

جلس الجميع . تحدث منير ، مرتجلا كعادته ، تطرق إلى مشروعه الروائي ، ثم قرأ فصلا من روايته الأخيرة وفتح باب النقاش .

تركز النقاش حول ما أسماه بعض المشاركين في الندوة «أنسنة الإسرائيلي» ، والغالبية كانت رافضة لذلك . معظم الحاضرين كانوا من اتجاه سياسي واحد ، الاتجاه القومي ، لذلك تركزت ملاحظاتهم على اختيار منير جنديا إسرائيليا ليكون بطل روايته ، والاقتراب الحميم من ملامحه الخاصة . رد منير أنه لا يعترض على هذه القراءة للرواية ، فهذا حق القارئ ، لكن تناوله للشخصية بهذا الشكل كان بهدف مختلف تماما .

في نهاية الندوة تبادل منير أحاديث ثنائية مع بعض المشاركين ، ثم لاحظت أنه يبحث بعينيه عن شخص ما . خمنت أنه يبحث عن منال ، التي كانت مستعجلة على ما يبدو ، حيث غادرت قبل نهاية النقاش .

- شو؟ ما صار موعد الإفطار؟

سأل مداعبا .

- صار من زمان .

- يلا أنا عازمك عالإفطار .

- لا ما بيصير ، هيك ألله ما رح يقبل صيامي . أما إذا أنا عزمتك ممكن .

قال ضاحكا : طيب . وين بدك تعزميني؟

- انا بعرف إنك بتحب المأكولات البحرية ، وبعرف إنك بتحب مطعم «الصياد» . خلينا نرجع على حيفا ، نستلم الشقة من أستر ونروح نتعشى .

كان الاقتراح موفقا ، قرأت ذلك في ملامح الفرح في وجهه .

اتصلت بأستر تلفونيا لأطمئنها أننا في الطريق ، وسنصلها بعد أقل من ساعة ونصف .

حين وصلنا كانت أستر قد أعدت حقيبتها . عرفتها بمنير ، سلمتني المفتاح ثم غمزتني وقالت :

- إستمتعي .

ابتسمت وشكرتها .

اتصلت بالمطعم لأحجز طاولة ، أخبروني أن جميع الطاولات محجوزة .

أخبرت منير ، سأل بأسف :

- والعمل؟ وين رح تفطري؟

- ما تهتم ، خليني أشوف إيش فيه في ثلاجة أستر .

وجدت بعض الفواكه ، وضعتها في طبق وأحضرتها إلى الصالون .

- شو ، معقول تصومي وتفطري على فواكه؟

قلت ضاحكة : مش أحسن ما أصوم وأفطر على بصلة؟ عموما الفواكه هي مقبلات فقط ، وجبتي الرئيسية هي إنت ، بدي أفطر عليك .

قلت وخطفت قبلة .

قشرت تفاحتين ، قدمت له واحدة ، وبدأت أقضم الأخرى .

التصق منير بي وبدأ يتحسس جسدي . أطبقت على شفتيه أحاول تعويض ظمأ الأيام الماضية .لم أرتو سريعا . بقيت شفتانا مشتبكتين في عراك حميم فترة طويلة ، ثم حملني إلى غرفة النوم وأكملنا المعركة على السرير .

مرة أخرى أسلمتني النشوة إلى البكاء . هذه المرة طال البكاء أكثر من المرة الفائتة .

- وبعدين؟ ما بدك تحكيلي شو القصة؟

سألني وهو يحتويني بذراعيه ويمطر عنقي بالقبلات .

- ولا إشي .

قلت بين نهنهاتي .

- لا هيك رح أزعل . انا واثق إنه فيه إشي .

تصاعدت وتيرة نشيجي .

- سمر حبيبتي شو القصة؟ أرجوكي احكيلي .

ترددت ، ثم قلت :

- بدي منك بنوتة حلوة

قال بضيق : شو رجعنا؟

- حبيبي هذا الطريق الوحيد نحطهم أمام الأمر الواقع . أنا بدي بنوتة منك في كل الأحوال ، وبدي أسميها «حيفا» لكن إذا استعجلنا في الموضوع بنقطع الخط على معارضة أهلي لارتباطنا .

لم يجب ، بدا شاردا .

- مالك؟

- حبيبتي شو هالأفكار الجنونية؟

قلت بغضب : ليش هي الأفكار العقلانية بتمشي معهم؟ تفضل ، روح أخطبني من بابا «بعقلانية» ، أوخد لك موعد معه ؟

لم يجب .

- مالك؟

بقي صامتا .

غضبت من سلبيته ، أدرت له ظهري .

احتضنني من الخلف وقال : حبيبتي رح نلاقي طريقة ، بوعدك .

عدت إلى النشيج .

- خلص يا قلبي ، والله إلا نلاقي طريقة .

استدرت إليه ، وقلت بتحد :

- إسمع ، رح أجس نبض العائلة .

- كيف؟

- إنت ما إلك ، رح أحكي بالموضوع بشكل غير مباشر وأشوف رد فعلهم .

- إنتي مستعجلة المواجهة يعني؟

غير معقول ، هل يتعمد استفزازي؟

- شو مستعجلة؟ إنت بعد أكم يوم رح تسافر ، إيمتى نحكي يعني؟ ولا بدك تتفاوض مع بابا عالتشات؟

قبلني مرة أخرى ، هذا أسلوبه لإطفاء نار غضبي كلما لفحه وهجه .

- طيب ما تزعلي ، إعملي اللي بتشوفيه مناسب ، ولما يكون مطلوب مني خطوة بلغيني وأنا جاهز .

ابتسمت . أفرحني هذا الموقف . قبلته . تمسك بشفتي وبدأنا المعزوفة من جديد . لم نتوقف إلا في نهاية السيمفونية . أسلمتني النشوة إلى أحلام لذيذة . نمت في ذراعيه حتى الصباح .

- ١٣ -

منذ عـودتي إلى الفندق والتـوتر يقـبض روحي . أريد أن أكون بجانب أمي ، وأمل لم تتصل لتؤكد موعد الغد . اتصلت بأختي .

- شو الأخبار؟

- لا جديد .

- لساتها لا بتوكل ولا بتنام؟

- وضعها بتغير من لحظة لأخرى . أحيانا بتوكل بشهية ، وأحيانا بتكتفي بمعلقتين شوربة طول اليوم . والنوم ما إلوش نظام برضه . غالبا بتظل صاحية طول الليل ولما تحس بإرهاق بتروح فجأة بشبه غيبوبة . إنت شو صار معك؟

- مستني تأكيد من الصديقة اللي رح توصلني . مفروض بكرة نحاول ندخل .

- طيب بلغنا إذا تأكد الموضوع .

ما إن أنهيت المكالمة حتى وجدت رسالة نصية من أمل . كدت أنهار . تقول إن جمال ، لسبب ما ، لن يذهب للعمل الأحد ، ولذلك تطلب تأجيل الموضوع إلى الاثنين . هو يوم

واحد فقط ، فلا تظن أنه سيبقى في البيت يوما آخر ، هكذا كتبت أمل . يوم واحد فقط ، ولكن من يضمن لي أن ينتظر القدر يوما آخر؟ أمي ، انتظريني أرجوك! أنا في باحة البيت ، لم تبق سوى خطوات وأندفع إلى حضنك . للقلب ذاكرة لا علاقة لها بالزهايمر ، ونبع حنانك لا يخضع لقوانين الطب . لا بد أن تتذكريني ، لا بد أن تفتحي لي ذراعيك ، سنهزم الزهايمر معا ، الحب سينعش الذاكرة .

دموعي تتساقط ، بدأت الطقوس صامتة ثم تحولت إلى نشيج . هممت بالاتصال بأختي ، أريد أن أسمع صوت أمي ، لتقل أي شيء ، لا يهمني إن نطقت باسمي أم عجزت عن أن تتذكرني . أريد أن أسمع صوتها ولو كان همهمات .

أدرت رقم أختي . كان مشغولا . أعدت الكرة أكثر من مرة . لا فائدة .

نزلت إلى البار . طلبت كأسا من الويسكي بالثلج . أريد أن أهرب من وعيي ، أما الحزن فلا مهرب منه . الويسكي لا تذهب به ، بل على العكس ، تؤججه .

وصلت اللوبي وأردت التوجه إلى البار ، سمعت صوتا يناديني . تلفت ، كان أحد أصدقاء صديقي صلاح ، من المشرفين على تنظيم أمسيتي .

- أهلا أستاذ بهاء .

نظر إلي ، بدا عليه الارتباك .

- خير مالك؟

- ولا إشي ، كنت رايح عالبار أوخد كاس ، تفضل معي .

بدا وكأنه يريد أن يسأل شيئا ، لكنه متردد ، ثم حسم أمره :

- استاذ منير ، إحنا إخوان ، شو اللي مضايقك؟ بقدر أساعد بشي؟ عيونك حمرا ، يبدو إنك كاين تبكي .

أطرقت في الأرض ، هل أثقل عليه بحزني؟

- إيش في؟ إحنا إخوان ، يمكن أقدر أساعد بشي .

قلت : إمي .

واختنق صوتي بالدموع .

ربت بهاء على كتفي ، وسأل :

- سلامتها ، مالها؟

- إمي مريضة كتير ، ومش قادر أوصلها .

سأل مستغربا : ليش مش قادر؟

- ختموا جوازي في المطار ممنوع أدخل الضفة .

- معقول؟

أخرجت جواز سفري وناولته له .

تفحص الختم وقال بأسف :

- صحيح ، لكن شو السبب؟

- ما بعرف .

صمت برهة ، ثم قال :

- خليني أسأل صديقنا عصام ، هو محامي يمكن يقدر يعمل إشي .

هززت رأسي بخيبة أمل : حكيت له ، سأل زميله في المكتب ، محامي يهودي ، قال له صعب عمل أي شي .

صمت لحظة ، ثم اقترح أن يوصلني بسيارته ذات اللوحة الإسرائيلية الصفراء ، لعلهم لا يكتشفون هويتي على المعبر .

- تسلم ، لكن ما في خطر عليك؟

- لا ما يكون لك فكر ، أعطيني مهلة بسيطة ، أكم يوم ، أرتب أموري وبرجع لك .

شكرته . ودعني بعد أن أعطيته رقم هاتفي المحلي . هناك متطوعان الآن لتهريبي إلى بلدتي ، وكلاهما يطلب مني مهلة ، لكن هل يمهلنا القدر؟

- ١٤ -

دخلت الحمام بتردد ، لا أريد أن أغسل آثار جسده ، لمساته ، قبلاته ، أنفاسه . أصبحت مسكونة به . لم تكن علاقتي به تجربتي الجسدية الأولى ، لكن الآخر لم يكن يدلل جسدي كما يفعل هو . لا يتوقف عن إقامة صلة ما معه طوال وجودنا معا ، قبل مهرجاننا الجسدي على السرير وبعده . يجعلني أحس أن وجودي معه فعل حب متواصل ، فور بلاي وبوست بلاي بلا نهاية وبينهما حريق الجسد . لا ينتهي الفعل حين ينتهي ، بل يبدأ فصل جديد من اللمس والقبلات والعض والشم . .فعل الحب بيننا يستنزف الحواس الخمس ، أو الست . أغمض عيني تحت «الدوش» ، أترك الماء الساخن الذي ينسكب على شعري يساعدني في استحضاره . علاقتنا الجسدية مركبة ، متعددة الأسماء والروافد ، فيها شعر وفكر وموسيقى ، وأتونها الجسد . الزمن ، بكل تجلياته ، عامل غير ذي صلة فيها . يكبرني بثلاثين عاما وحين نمارس الحب أحسه كطفلي . حين يخلع ملابسه يتخفف معها من سطوة الزمن . الانسجام بيننا يجعل كلينا يحس بالندية وينسينا تماما أننا

ننتمي لفئتين عمريتين مختلفتين . لا أحب أن يقارنني بنسائه السابقات ، ولا أرغب بمقارنته مع الآخر الذي لم يكن يكبرني سوى بسنتين ، لكن الفجوة الحميمة مع منير أضيق . تغلغل بكياني بعمق لم أكن أتوقع أنني سأسمح به لرجل . لن أستطيع أن أشرح كل هذا لوالدي ، فهو لن يعطيني الفرصة أصلا ، لكني لن أعطيه الفرصة لتقرير مصيري . الانفصال عن منير غير وارد ، ويمكن لأبي أن يتصرف بباقي الخيارات : لا مانع عندي أن أكون حبيبته السرية إلى الأبد ، وأنجب منه طفلة بهذه الصفة . إذا كان المجتمع من يقول الكلمة الأخيرة في علاقتنا فلن أدعوه للكلام أصلا . الأفضل للجميع أن لا يقفوا في طريقنا ، لأني سأضطر إلى سلوك طرق جانبية إن فعلوا . أحب أبي ، ولا يمكن أن أرغب في جرحه أو التسبب بخيبة أمل له ، لكن ألا يحبني بدوره؟ لماذا إذن يريد أن يدمر حياتي ويقف متفرجا على حطامها؟ أظن أن الرسالة وصلته ، أنني لن أتزوج بطريقة تقليدية . جاءني أكثر من شاب يخطبني ، ورفضت الفكرة جملة وتفصيلا . في المرة الأخيرة ثارت أعصاب والدي وقال لي إنه لن يقبل رفضا قاطعا دون أن أعطي الشاب فرصة . مارس علي ضغوطا كي أخرج معه ، لعل وعسى . يا إلهي ، ماذا يظن؟ ما هكذا يولد الحب! قهوة في فالنتينو أو عشاء عند دوزان! مع ذلك خرجت معه مرات قليلة ، وأنا أعرف النتيجة مسبقا . كان شابا مثقفا ولطيفا ، استطعت

أن أقنعه دون عناء أنني لست عروس أحلامه . افترقنا بود ، أما والدي فثار في وجهي . بكيت كثيرا ، لا أحبه غاضبا . عودني على احتضاني بحنان وتربيت شعري في لحظات ضعفي ، ولم آلف صراخه وغضبه . بكيت حتى استنزفت نفسي ، وغبت في نوم عميق . في الصباح التالي لم أطق أن ألقي على والدي تحية الصباح ، وهو لم ينظر في عيني . لا أدري إن كان ذلك مؤشرا لاستمرار غضبه أم أنه ندم على صراخه في وجهي الليلة الماضية . لم أبح بشيء عن علاقتي بمنير سوى لأستر ، صديقتي اليهودية . حتى شقيقتي سحر لا تعرف شيئا عن الموضوع . هي تعرفه ، قرأت رواياته . لم أعد قادرة على الاحتفاظ بسري الآن ، لا بد من البوح . سأحدث سحر . خرجت من الحمام إلى غرفتها مباشرة . كانت تدرس ، ناديتها وأنا أجفف شعري بمنشفة الحمام .

– سحر

ـ إيش؟

– بحب .

رفعت وجهها عن الكتاب وابتسمت .

– جد بحكي .

– طيب ، أنا مصدقتك .

– بتعرفي مين؟

– بعرفه أنا؟

- أكيد .

- مين؟

ـ منير حمدان .

- مين هذا؟ ما بعرف حدا بهالإسم .

- بتعرفيه ، حاولي تتذكري .

حـــاولـت ، بلا جــدوى . توجـــهـت إلى رف الـكـتـب في غرفتها ، إحدى رواياته ما زالت هناك ، وعليها صورته . أخذتها بين يدي ، ثم ضممتها لصدري . انفجرت سحر ضاحكة .

- حبيبك كتاب؟ رواية؟

- لا ، كاتب .

نظرة متوجسة .

- مين؟

وضعت الكتاب أمامها وأشرت للصورة .

- هذا .

نظرت إلي غير مصدقة .

- بتتخوتي علي؟

- لا ما بتخوت ، صحيح .

صوبت نحوي نظرة تحمل معاني كثيرة ، عدم التصديق والاستهجان والصدمة .

- مجنونة!

- يمكن ، لأني فعلا بحبه بجنون .

نهضت عن كرسيها وجلست على السرير إلى جانبي . يبدو أنها استوعبت الآن جدية الموقف .

- أحسن لك تنسي الموضوع .

قلت باستنكار :

- ما هو بهالبساطة يعني .

- مش بهالبساطة ، بس هذا هو الحل الوحيد ، إنتي بتعرفي إنه بابا بيموتك لو يعرف .

قلت بتحد : خليه يموتني .

بقيت نظراتها مسمرة علي دون أن تنبس .

- إذا بتحبيني أعطيني نصائح من نوع تاني .

- من أي نوع؟

- يعني فكري معي كيف ممكن أقنع بابا .

هزت رأسها : إنسي الموضوع ، بابا مستحيل يقتنع ، وإنتي بتعرفي كويس .

- ما هاي المشكلة ، إني بعرف .

صرخت ، وبدأت أنتحب احتضنتني وبدأت تربت على ظهري .

- خلص ما تبكي .

توقفت عن النحيب لكن دموعي استمرت في الهطول .

- شو أعمل ، قوليلي! ما بقدر أتركه ، ما بقدر! .

جاء صوتها يحمل نبرة تعاطف هذه المرة : حبيبتي ما

بقدر أخدعك ، أنا بعرف وإنتي بتعرفي إنك لازم تتركيه . أكبر منك ، وعايش في بلد تاني ، ما في أب ممكن يقبل بهيك زوج لبنته صرخت : بيهمنيش .

قالت مؤنبة : سمر إعقلي ، شو بيهمكيش؟ ما بتقدري تتجوزيه بدون موافقة بابا ، ولا بدك تهربي معه؟

- آه بهرب ، ليش لا؟

نظرت إلي غير مصدقة :

- سمر أنا رح أحكي لبابا . شكلو هذا أكل عقلك ، وخايف تعملي إشي مجنون .

- بموتك .

- لا رح أحكيله ، لازم يعيدك لصوابك .

- بديش يعيدني لصوابي .

- مش على خاطرك .

- مبلا على خاطري ، أنا مش صغيرة .

- إنتي كبيرة بس عقلك صغير .

قالت ، وهبت واقفة

- سحرررر .

صرخت في إثرها ، لكن بلا جدوى ، فقد كانت مقتنعة أنني على وشك الغرق ، وأن أبي هو الوحيد الذي يستطيع إنقاذي . بدأت أنتحب ، في انتظار سكين الجزار تفتح صدري وتجتثه من قلبي . لن أستطيع أن أتركه طواعية . عليهم أن

يخرجوه من داخلي بعملية جراحية قاسية . مضت دقائق قليلة قبل أن يندفع والدي هائجا إلى الغرفة :

تعالي معي .

صرخ في وجهي . وقفت ومشيت وراءه مطرقة برأسي ، تبعته إلى الى الصالون .

– يعني إنتي مصرة كل شوي تجيبيلي مصيبة؟!

لم أعلق .

– الأول مسيحي ، الثاني أكبر من أبوكي ، شو قصتك؟ إنتي مش هيك ، إنتي عادية في كل إشي ، ليش بتصيري شاذة لما يوصل الموضوع للزواج؟

كنت أريد أن أصرخ : أنا مش شاذة ، إنتو وقوانينكم الشاذين . الحب مش شذوذ! . لكني لا يمكن أن أتحدى والدي ، فالتزمت الصمت .

– شو؟ ليش ما بتردي؟

قلت بصوت تخنقه الدموع : بحبه .

صرخ في وجهي : حبك برص! إنتي مجنونة ولا شو؟ خلينا ننسى فارق السن المضحك ، فكرتي بمستقبلك؟ وين بدك تعيشي معه؟ برام الله؟ يمكن مفكرة رايحة توخذي معك وظيفتك وسيارتك والكوبات حوليم وكل إشي! أصلا مش رايحة تلاقي شغل هناك على الأغلب . إنتي مهندسة معمارية ، وما فيه برام الله شركات بتوظف مهندسين

معماريين ، يمكن فيه شركة ولا تنتين وآلاف الخريجين من جامعات الضفة ومش ممكن يعطوا أولوية لخريجة جامعة إسرائيلية .

كنت أستمع لما يقول وكأنه موجه لشخص آخر ، لم أهتم بالتفكير به أو الرد عليه . ثم بدأ يعزف على وتر آخر :

– وبعدين ما رح تقدري تعيشي في الضفة . الناس طيبين ، وأهلنا ، على عيني وراسي ، بس حياتهم غير . شفتيهم على شواطئ تل أبيب؟ بدخلوا بالبحر بأواعيهن ، وبيقعدوا يتغدوا عالشط بيتركوا وراهن مزبلة! هذا حكي عيب أحكيه وما بحكيه أصلا ، كل واحد حر بحياته ، بس هاي حياة ما بتناسبنا إحنا ، مفهوم؟

لم أجب .

– ما بدك تجاوبي بلاش ، الموضوع بالنسبة إلي منتهي!

ما رح نرجعله ، إنهيه بطريقتك . أنا خلصت حكي .

وقفت ، واندفعت كالمجنونة إلى غرفتي ، أغلقت الباب من الداخل وانهرت على سريري وانفجرت بالبكاء .

- ١٥ -

مرة أخرى لاذت بالغياب . اختفت من كل الوسائط والفضاءات الافتراضية . أقفلت حسابها على فيسبوك ، لا يمكن إرسال رسالة لها عبر تويتر ، وهاتفها مغلق ، ولا أملك سوى مقارعة الاحتمالات . ما الذي حصل؟ هل هي مترددة في المضي في هذه العلاقة؟ سأتفهمها لو واجهتني بهذا ، لكني أريد منها أن تقف في مواجهتي ، تنظر في عيني وتقول : لا أستطيع الاستمرار في هذا الجنون .علاقتنا لا أفق لها ويجب أن لا نتمادى أكثر . لن أجادلها في شيء ، فهذه كلها حقائق تستند إلى تفكير عقلاني . لن أراودها عن عقلانيتها ، لو وجدت . لكن المصيبة أنها أكثر جنونا مني ، لا تريد التعامل مع الاعتبارات العقلانية التي أقذفها بها كل فترة ، بل تغضب وتنفجر في وجهي : «أنا لست صغيرة ، وأنت لم تغرر بي . أنا أعرف تماما ما أفعل!» . بماذا يمكن أن أجيب؟ أنا أرقص على حافة السكين ، كالعادة . لا أشجعها على الجنون ، فأنا الأكبر سنا وعلي مسؤولية أكبر في العلاقة . فضلا عن ذلك فأنا لا أخسر شيئا من تمادينا ، هي من ستخسر . ولكني لا أقف في

طريق جنونها ، لأن في هذا خيانة لجنوني . لا أحرض ، ولكني لا أعظ .

إذن الأمر سهل ، لو أرادت الانسحاب فعلا ، فلماذا هذا الغموض؟ لماذا تختفي عن راداري فجأة وبدون مقدمات؟ ولماذا تتخذ القرار من طرف واحد ، وكأني غير موجود في المعادلة؟ أيا كان منطلقها ودافعها للهرب فمن حقي أن أسمع منها ، من حقي أن أحاورها ، أي علاقة هذه؟ إن كانت تريد البكاء فلماذا لا تبكي على صدري؟ وإن أرادت إطلاق صرخات تمزق العبث في هذا الكون فلماذا تختار أن يبتلعها الخواء؟ أي حب هذا ، أي شراكة؟ أليس هذا هو الوضع الذي نبحث فيه عن حضن يمتص حزننا ، عن ذراع تحتوي انكسارنا؟ عن جسد يطلق رعشاته وآهاته محتجا على قوانين هذا العالم؟ أليس من المفروض أن نواجه العدم بالحب والعبث بزغاريد الجسد؟ سواء كنا نريد أن نلوذ بقوانين فضائنا الخاص أو نرفع الرايات البيض على أبواب القلب ، أليس من المفروض أن نفعل هذا معا؟ لماذا نسمح للحزن أن يختلي بنا؟ ألا تعرفين أن الحزن المنفرد هو حصان طروادتهم؟ ألم يخطر ببالك أنك بإلغائي تشرعين الأبواب للهزيمة؟

«إن تكن خارج جسدي فأنت غريب . . .» قلتِ ، ثم انفلتِ خارج مداراتي . . . أمعنتِ في الرحيل وتماديتِ في الحضور ، كسرتِ ما تبقى من قوالبي المتهالكة وأطلقتِني في

فضاءات القلق . . .كنتِ ترددين أغنية حزينة وأنت تنهلين من روحي ما تيسر من ترياق اللذة . .كيف يطؤك الحزن أيتها المتشردة في براري الغواية؟ وأي آلهة تعتقني من مأزق نصبته شراك الريح وطيفك؟ «إن تكن خارج جسدي فأنت غريب» ، وكيف لا أكون وقد شردتني القوافي خارج التغطية؟ كيف لي أن ألتقط إشاراتك التائهة وقد فقدت راداري طوعا؟ أيتها الروح العابرة حواجز الندم ، هلا تركت لي أثرا أقتفيه عبر متاهات نزقك؟ قد أحرقت ما تبقى من أشرعتي وأتت نارك على مركبي العجوز ، وبحر حيفا متاهة ، والليل بلا نجم أستهديه! هل من أغنية ، أو آهة! أو أي صدى مرتبك يرشدني لخطاك؟ أين أنت في هذا التيه وأين أنا؟ هل نهيم في مدارين متوازيين؟ أمد يدي كي تلتقطيها ، تمدين يدك كي تقوديني في هذا الضباب ، فنقبض الريح .

عودي أيتها الغائبة ، لأعود من غيابي . هل يبتلعك اللاشيء قبل أن نمضي معا في إثر كأسنا المقدسة؟ وماذا عن حيفا؟ حيفانا ، التي رسمنا ملامحها قبلة قبلة ، وشكلنا روحها شهقة شهقة؟ هل تغيبين وحيفانا لم تولد بعد؟ هل تكتفين بحيفاك وتتركين حيفانا مجمدة في ثنايا الرغبة؟ يا للطفلة المسكينة ، خلقناها ولم ننفث فيها الروح ، فهل نتركها ملامح بلا روح؟ عوديييييي . . . . .عوديييييي . . . .

- ١٦ -

«جاء المساء ولم يجدك ، دس قمره في حقيبة يده ومضى» . تركني أكتوي بلسع غيابك . كم مرة فتحت حسابي الفيسبوكي ، الذي أغلقته ، أثناء نومك؟ تصفحت منشوراتك ، استعرضت صورك ، واحدة واحدة . آنستني قليلا . ثم أحسست بحاجة لأن أسمع صوتك . هممت بمهاتفتك في الثالثة فجرا ، إيقاظك من نومك . لماذا تنام أصلا؟ أنا لم أغمض جفني لحظة واحدة . سئمت محاولاتي الفاشلة . ثم خطر ببالي أن صوتك هناك ، في متناول الجميع ، فكيف يكون بعيدا عن أذني؟ كم أنا مدينة لهذا الفضاء الافتراضي بكل أشكاله . ليخرس الذين يتشدقون بأنه يقتل العلاقات . تلك العلاقات تولد ميتة أصلا . في حالتي الفضاء الافتراضي كنز لا يقدر بثمن . أدخل إلى «يوتيوب» وأختار واحدة من مقابلاتك الكثيرة المتاحة هناك . ألتهم صوتك . أتشرب صورتك . هل تعرف أن صوتك دافئ؟ وهل لاحظ غيري هذه العفوية التي تتحدث بها ، حتى وأنت تستخدم اللغة الفصحى؟

لا أدري مـاذا أفـعل . والدي داس بالأمس على كـيـاني ، فـتت قلبي بسـادية ومـرغ روحي في اليـأس . أنا جبـانة ، هل تعـرفت على هذه الخـصلة بي؟ أحبـك ، ولا يمكن أن أستـسلم لأي قـدر ، لكنـي أعـرف أنني أجبن من أن أواجـه أبي . أمس هرسني صوته ، أطرقت برأسي كقطة مذعورة . لـم أتفوه بشيء ردا على أوامـره العـسكرية ومـحظوراته ، باسـتـثناء كلمـة واحـدة كان لا بد أن أصرخ بها . «أحبك»! قلتها بقوة وبصوت واضح ، تحديته بها . سخر مني بطريقته المعتادة : حبك برص! خرست بعدها . أمطرني بمحاضرة طويلة عن الحياة في رام الله وأهمية الكوبات حـوليم! وأهل الضـفـة الذين ينزلون إلى البـحـر بملابسهم . مالي أنا وكل هذا؟ مالنا وكل هذا؟ أنا أحبك أنت ، وأريد أن أعـيش مـعك في أي مكان على هذا الكوكب . لـكنـي لم أجرؤ على الرد . تركني بعد أن أبلغني أن الأمر منتهٍ بالنسبة له ، ولي! قـرر مكاني! هل أنا قـوية بما يكفي لتـحـديه؟ هل أنا ضعيفة بما يكفي لتحديه؟ هل أستطيع أن أدير له ظهري وأهرع إلى حضنك الدافئ؟

منيـر! مـاذا تعـمل؟ أنت نـائم طبـعـا! ولكـن بماذا تحلم؟؟ كـيلومـترات قليلة تفـصلنا عن بعض ولكـننا نحلم منفـردين ، ونعاني من وحـدة في سريرينا . جاءتني فكرة جهنمية : ماذا لو ارتديت مـلابسي وخـرجت من المنزل بهدوء؟ هم نائمون الآن ، ولا أظن أن فتح باب المنزل وإغلاقه سيوقظهم . ماذا لو قضيت

ساعتين في أحضانك وعدت إلى البيت قبل شروق الشمس؟ لن يلاحظ هذا أحد ، وهو يلائم تماما جنونياتي المعهودة ، فما رأيك؟ هل أفاجئك الآن في سريرك؟ تصور لو فتحت عينيك ووجدتني فوقك ، أمطرك بقبلاتي . تصور لو تآمرت مع أحد موظفي الاستقبال ، بعضهم عرب كما تعرف ولن أعدم وسيلة للتفاهم معهم . ستستيقظ ذكوريتهم الشرقية ، لكني سأرجوهم ، سأبكي ، سأفعل أي شيء ، سيعطونني البطاقة الإكترونية لأفتح باب غرفتك ، هذا مخالف للقوانين وربما تسبب في طردهم ، لكني سأستعطفهم أكثر ، سأقول لهم إني أحبك ولا يشكل هذا خطرا على أمنك الشخصي ، ولن تحتج على الموضوع بل ستكون ممتنا لهم .

– يا ماما ليش لسة ما نمتي؟ كيف بدك تصحي عالشغل بكرة؟

يبدو أن والدتي دخلت الحمام ، وهو غير بعيد عن غرفتي ، ولاحظت أنها مضاءة .

– مش جاييني نوم .

قلت ، وأجهشت بالبكاء .

احتضنتني ، وبدأت تتحسس شعري .

– حبيبتي الله يهديكي ، بابا بدو مصلحتك .

لم أجبها ، بل ارتفع نشيجي أكثر .

– هش ، بلاش بابا يصحى .

دفنت رأسي في صـدرها وحـاولـت التـحكم في صـوتي ، بدأت نهنهاتي تخفت .

- نامي يا ماما ، بكرة عندك دوام .

أطفـأت النور وغـادرت ، وأنا أيضـا ، هربت ، إلى الأحـلام ، علني هناك ألتقيك .

- ١٧ -

تلقيت دعوة من منال للتعرف على طالباتها . جميعهن نساء متزوجات ولديهن أطفال ، لكن كن قد اضطررن لترك المدرسة عند الزواج . تنظم منال وزميلات جامعيات لها دروسا منتظمة لإعداد النساء لامتحان الثانوية العامة «البغروت» ، بالسر ، بسبب معارضة الأزواج . الموضوع محفوف بالمخاطر كما قالت لي ، لذلك يجري بسرية تامة ، كأنه عمل سياسي محظور . دعتني لحضور يوم دراسي ، وتقديم محاضرة بسيطة عن الأدب في حصة اللغة والأدب العربي ، وتحمست للموضوع . حددنا يوم الثلاثاء للزيارة .

اتصلت بأمل أسألها عن كيفية الوصول إلى اللد ، فعرضت ، كعادتها ، أن توصلني بسيارتها .

– هيك هيك أنا متحمسة أتعرف عالصبايا ، ويمكن أشارك لاحقا في البرنامج .

جاءت صباح الثلاثاء إلى الفندق لاصطحابي ، وانطلقنا في ساعة مبكرة بنية الوصول إلى اللد قبل التاسعة .

– مش رح نتأخر ، صح؟ ما بدي جمال يعرف .

– رح نقعد ساعة هناك مش أكثر .

اعتذرت أمل عن عدم وفائها بوعدها يوم الأحد وانشغالها بشكل مفاجئ يوم الاثنين ، وجددت الوعد بإيصالي إلى بلدتي بسيارتها ، رغم الختم في جواز سفري الذي يحظر علي دخول الضفة الغربية .

- إنت مش بحاجة لأختام عشان تزور بلدك ، طز فيهم .

بعد خروجنا من حيفا لاحظت أن سيارة تتبعنا . تسير خلفنا منذ خروجنا من المدينة .

_أمل تطلعي في المراية وراك .

_إيش في؟

- -شايفة السيارة التويوتا البيضا؟

- مالها؟

- بتتبعنا من فترة .

ضحكت أمل :

- منير إنت في حيفا ، سيبك من برانويا أهل الضفة . هون ما في سبب يتبعونا .

لم أعلق ، لكني بقيت أراقب التويوتا البيضاء أثناء حديثي مع أمل . بقيت السيارة تتبعنا حتى اللد . لم أخبر أمل ، حتى لا تسخر مني مرة أخرى ، ولكني أحسست بالقلق .

دخلنا اللد .

- شو رأيك أعمل لك جولة سريعة؟ تشوف أهم معالم اللد؟

كنت أخشى من تأخرنا على موعدنا مع منال فاقترحت أن نؤجل الجولة الشاملة لما بعد اللقاء ، ولكنني أحببت أن أرى جسر جنداس والجامع العمري تحديدا .

وصلنا الجسر الذي بناه الظاهر بيبرس ، وحبست أنفاسي . وجدت نفسي أسافر عبر الأزمان ، أتحرر من عسف الراهن وأعود باللد إلى ماضيها العربي . نسيت للحظة ما حدث ، نسيت الاحتلال ، والبؤس الذي جلبني إلى هنا تحديدا ، وعدت إلى أجواء أخرى . كنت أتفحص العمارة المملوكية بانبهار . رأيت لوحة تذكارية فتوجهت إليها لأستطلع تاريخ الجسر ، وبانيه .

وحسب هذه اللوحة فإنه تم تشييد هذا الجسر بأمر السلطان الظاهر ركن الدين بيبرس البندقداري ، ونفذ ذلك علاء الدين علي السوّاق ، وذلك في شهر رمضان سنة ٦٦١ هجرية .

تأملت الأسدين على جانبي الجسر ، يذكران بأسدين مماثلين على باب الأسباط في القدس .

كيف يمكن أن تلغي التاريخ وهو يحاصرك؟

طبعا سنتوغل في المدينة وسنرى أشخاصا بملامح لا تشبه هذا الجسر ، يتحدثون لغة أخرى ، لكن بقاء هذا الجسر وغيره من المعالم الممتدة من عهد الرومان يدحض النظرية التي تصر على استلاب الانتماء .

حين وصلنا الجامع العمري رأيت بجانبه كنيسة جميلة ،

كنيسة القديس جورجيوس ، تنتصب بشموخ إلى جانب الجامع ومئذنته الشاهقة ، تتحديان النسيان وتنعشان ذاكرة التاريخ التي وطئتها حوافر النفي والإلغاء .

بقيت أتأمل التوأم من الخارج ، لم يتسع المجال للدخول ، لأن موعدنا مع منال يقترب . سنعود على أي حال ونعطي المدينة حقها من التجوال .

وصلنا المقهى حيث سنلتقي منال ، قبل ربع ساعة من الموعد .

كان مقهى إسرائيليا ، ولكن النادلة كانت عربية . طلبت قهوة وطلبت أمل عصير برتقال .

- أول مرة بتزور اللد؟

- أول مرة . طبعا اسمها كان حاضر في حياتي من الطفولة : مطار اللد ، وكمان مؤذن بلدتي كان إسمه «اللداوي» ، واضح إنه أصله من هون .

- أنا باجي هنا كثير إلي . . . . . .

وقبل أن تكمل أمل جملتها . . . .

- قوموا من هون يلا . . .

أدرنا وجهينا في الوقت نفسه ، برعب ، باتجاه مصدر الصوت الذي كان يصرخ فينا . على مدخل المقهى وقف شاب مربد الوجه غاضب الملامح ، يحمل بندقية أم ١٦ يصوبها باتجاهنا .

نظرت إلى أمل ، كان وجهها أصفر ، لا أظن أنني يمكن أن أستند إليها .

– إنتو لسة قاعدين؟

– إيش في؟ مين حضرتك؟

سألت بصوت مرتجف .

– ولا كلمة ، قوموا ، إطلعوا من القهوة ، وعالسيارة ، إرجعوا من مطرح ما إجيتوا .

سحبتني أمل من يدي وركضنا باتجاه السيارة ونحن ننظر خلفنا .

وصلنا السيارة ، فتحت الباب بيد مرتعشة . كنت أحاول أن أفكر ، أن أخمن ما يحصل . لم أستطع التركيز .

أدارت أمل المحرك وانطلقنا بسرعة . نظرت خلفي . كان الشاب نفسه يتبعنا بالتويوتا البيضاء ذاتها . ماذا يعني هذا؟ من هو؟ ولماذا يتبعنا؟ وكيف عرف ببرنامجنا وخط سيرنا؟

– أمل مش قلت لك كانت سيارة لاحقتنا؟

كانت يداها على عجلة القيادة ترتجفان .

– لسة لاحقتنا ، السيارة نفسها .

نظرت أمل في المرآة وازداد اضطرابها .

لم تتكلم . سمرت نظري على المرآة ، لمراقبة السيارة البيضاء . حين خرجنا من المدينة استدارت راجعة .

– رجع .

تنفسنا الصعداء .

- الحمدلله .

- عندك أي تخمين؟

سألتها .

قالت بحيرة :

- لا .

بدأ الهدوء وصفاء الذهن يعود إلي ، وحاولت أن أركب الفسيفساء .

- أمل .

- إيش؟

- أعتقد إني بلشت أفهم .

- طيب فهمني .

- أعتقد إنا كنا محظوظين .

ضحكت بسخرية : يسلموا .

- كان ممكن يقتلنا .

- ليش؟ مين هو هذا أصلاً؟ بتعرفه؟

- لا ما بعرفه ، بس حكت لي منال أنه نشاطهم سري وخطير .

- التدريس؟

- آه ، أزواج النساء ما بدهم . كانوا قتلوا أكثر من وحدة قبل .

- آه سمعت عنهن ، بس ما ربطت . ما فكرت إن مشوارنا إله أي صلة بالموضوع .

- الصلة واضحة ، بس شو عرفهم ؟

- شو عرفهن إيش؟

- إنا جايين هون ، عند منال .

- ما بعرف . يمكن منال حكت لهن .

صدمتني الفكرة .

- لا ما تقولي هيك . لشو بدها تدعينا وتعرضنا للخطر؟ أنا بالكاد أعرفها . شفتها مرة وحدة .

- إذن كيف عرفوا؟ هدول عارفين كل إشي ، عندهم معلومات كاملة عنا إذا متابعينا من حيفا .

بدأت أقلب الأمر على وجوهه ، وازددت حيرة . جمال؟ هذا موضوع فيه جانب تجسسي وهو ضابط أمن . لكن ما علاقته بجماعة اللد؟ ولماذا يدخل على الخط أصلا؟ الموضوع لا علاقة له بمهمته كضابط أمن . الشرطة الإسرائيلية ، كما عرفت من المعنيين ، لا تبالي بالموضوع طالما أن الضحايا والمجرمين عرب . في هذه الحالة لا يثيرهم الأمر كثيرا ، فهو لا يهدد أمنهم . استبعدت جمال من الموضوع فزاد غموضا .

- لشو توصلت؟

سألتني أمل .

- ولا شي .

- عموما أعتقد الموضوع بالنسبة إلنا انتهى هون .

قالت أمل .

- شو عرفك؟

- لو كان بدهم منا إشي ما كانوا تركونا أصلا .

استنتاج منطقي . لكني لا أحس بالأمن إطلاقا . هم يعرفون مكان إقامتي في حيفا ، فالسيارة كانت تتابعنا من هناك . لو غيروا رأيهم في المستقبل وأرادوا إيذائي سيجدونني بسهولة .

ثم انتقلت بتفكيري إلى منال وشعرت بقلق شديد عليها . موضوعها أصبح مكشوفا إذن وهي في قبضتهم .

- بدي أتصل بمنال أطمئن عليها .

قالت أمل بفزع : لا بلاش دخيلك ، خلينا نوصل البيت وبعدين بنتصل . بلاش يكونوا مراقبين مكالماتها ولا ماخدين تلفونها .

بدا قلق أمل مبررا ، أجلت الموضوع لحين وصولي إلى الفندق .

حين وصلنا مدخل حيفا عاد الاطمئنان إلي .

- بلاش تحكي لجمال عن الموضوع .

- طبعا ما رح أحكي له ، ما بيعرف أصلا بالقصة كلها .

القلق على منال يتفاقم ، نحن الآن في حيفا على أي حال . طلبت رقمها . مغلق . ازدادت مخاوفي .

– منال ما بترد .

– إذن الوضع مقلق ، بتكون وقعت في إيديهم .

قالت أمل .

صمتنا لفترة ، كان القلق ينهش كلا منا على حدة . ثم ، رن جرس تلفوني . فتحت الخط بلهفة .

– ألو .

– مرحبا أستاذ منير . إنت بخير؟

جاء صوت أنثوي هامس من الناحية الأخرى .

– مين معي؟

سألت بحذر .

– أنا سلوى صاحبة منال .

قاطعتها : –منال بخير؟

– لا للأسف .

بدأ قلبي يدق بسرعة ، سألت بصوت مفزوع .

– شو صار معها؟

– اعتقلت اليوم الفجر .

– مين اعتقلها وليش؟

– الشرطة . لسة من شوي حكيت مع محاميها . متهمينها بالانتماء للجبهة الشعبية .

لم أستوعب الأمر .

– الجبهة الشعبية؟ هذا تنظيم فلسطيني في الضفة ، شو

خص منال فيه؟

– ما بعرف . لو عرفت إشي جديد رح أبلغك . المهم إنت بخير؟ كنا خايفين يعتقلوك .

شردت للحظة أحاول فك اللغز .

– ألو أستاذ منير .

– أيوا سلوى أنا بخير .

– طيب الحمد لله عالسلامة . لازم أروح الآن .

ازدادت الصورة غموضا .

– شو ؟ إحكيلي .

سألت أمل بلهفة .

– مش فاهم شي .

– مين اللي اتصل؟

– وحدة إسمها سلوى ، صاحبة منال . منال اعتقلتها الشرطة ومتهمينها بالانتماء للجبهة الشعبية .

– مش معقول! طيب مين اللي مراقبنا إذن؟ معقول الشرطة الإسرائيلية؟

تساءلت أمل بصوت مرتجف . الآن يبدو احتمال دخول جمال على الخط واردا .

– ما بعرف أمل .

– تعقدت الأمور كثير .

وصلنا الفندق .

- إنزلي معي .

- لا بلاش ، خليني الحق أوصل البيت أجس النبض إذا جمال إله دخل في الموضوع .

- طيب ، خبريني إذا عرفتي إشي .

- أكيد . يلا باي .

- إنتبهي عالسواقة . لسة متوترة؟

- لا ما تخاف .

دخلت الفندق . توجهت إلى البار وطلبت كأسا من الويسكي . ما الذي يجري؟ هل أنا تحت المراقبة الآن؟ أظن أنني كنت تحت المراقبة منذ البداية . جمال يلعب دورا غامضا . كل هذا الود وادعاء الاهتمام برواياتي ودعوته لي لمنزله ثم للعرس في الدالية ، هل كان شركا؟ ولكن ماذا يريد مني؟ لو كان في ملفي الأمني أي شيء لأوقفوني في المطار .

الصورة غامضة بكل جوانبها ، لكن إحساسا باللامبالاة سيطر علي . لا يهمني شيء الآن سوى الوصول إلى أمي . عاد الحزن يلف كياني .أمي ، كلما ابتعد بك الغياب اقتربت مني الذكريات . شردتني الحياة خارج ملكوتك والروح لم تبلغ الفطام بعد ، وابتلعني صقيع الغربة وأنا بعد أزداد تشبثا بدفء يشعه كيانك في المكان . ها أنت تلوحين من بعيد ، أحس بطيفك يتراجع في الراهن ، لكني أعيش حضورك خارج نطاق الزمن . في كل مرة يفاجؤني ضعفي رغم قوتي ، بينا أنا أؤلف

خطواتي نحو الحكمة واليقين ، فأرتد من طفولتي إلى طفولتي ، أنت هناك تتجسدين حكمة وتتألقين محبة . في كل مرة تستعصي علي المعاني فألوذ ببساطة مشاعرك ، رغم تعقيدها ، أستحضر فرادة معانيك . وفي كل مرة يحط المشرد الأبدي رحاله ليلتقط أنفاسه ويعد للرحلة القادمة ، يؤنسه دفء ابتسامتك . وحين أنشد إلفة في هذا الكون الغريب فتتجسد في يومي مذاقا وعبقا وذكرى ، يزورني طيفك فلا أغدو غريبا . هذه المرة لم تسعفني الحياة وتاهت خطاي على مرمى حسرة من مملكة حنانك . تخلفت عن عيدك اللوزي الذي سعيت إليه مرتبك الخطى متلهفا مشتاقا ، لأحتفل مع اللوز بابتسامتك . يبدو أننا ، ابتسامتك وأنا ، نشكل معا خطرا على أساطيرهم ، فانتصبوا بيننا ، قوانين وحواجز وأسلحة مشرعة في وجه المحبة .

هذا قدرنا ، أن نحتال على المعادلات الجيوبوليتيكية والتحالفات الاستراتيجية وتعقيدات الصراعات العالمية ، والكثير من حقول الألغام بأنواعها حتى ننعم بأبسط الحقوق البشرية : حضن أم . لكني لن أعدم وسيلة ، وسآتيك . .

- ١٨ -

ها أنت تصمتين مرة أخرى . يا ربي ، أي لغز هذا؟ تأتينني كتلة من شغف ، تنصهر في أحضاني ، تذوب في كياني حتى أخالنا كيانا واحدا لا تقوى حتى قوانين الفيزياء على تفكيكه ، ثم في لحة تتبخر كأنها لم تكن . تنفلت من بين أصابعي كحبات الرمل . أهاتفها فأجد هاتفها مغلقا دوني ، أبحث عنها في كل الفضاءات الممكنة ، ولا أعثر لها على أثر! أي لعبة هذه! لم أعد أحتمل هذه المرواحة بين النقيضين . الضجيج يتلوه الصمت القاتل ، البركان المزلزل في جسدينا يعقبه برد سيبيريا ووحشتها . التوحد ، ثم الوحدة .

لا تصمتي هكذا . . . . إصرخي في وجهي ، إلعني حماقات القدر ، إبكِ نذالة الريح وجبن الآلهة ، أو أديني خطواتنا المترددة ، لكن لا تصمتي ، فصمتك يسلمني للضياع . .أنا ، بلا صوتك ، لا أقوى حتى على إسدال الستارة ، لو قررت في لحظة يأس وإنهاك إسدالها . علينا أن نسدلها معا . أنا متعب ، متعب . . .

أسامر غيابك رفقة الليل البهيم . يستأذن الفجر ، تتسلل

أشعته بخفر ، تغافل بحر حيفا المشغول بطقوس المد والجز ، تتراقص قليلا على زجاج نافذتك ، تتمهل إذ تجدك غارقة في حلم لذيذ ، تشي به بسمة ارتسمت على شفتيك . بماذا تحلمين بدوني ، وأنا هنا أرافق الكابوس؟ . . . يرابط الفجر قليلا على أبواب الليل ، إلى أن تأتيه الرسالة : حورية الليل حزمت ما تبقى من الحلم ورحلت . . . .هنا ، في الناحية الأخرى من الحلم ، الليل يمعن في حضوره ، يقاوم طقوس الطرد ، ويعيث بقلب الساهر حبا ، وحزنا ووحدة . . . .

- ١٩ -

أفيق على صوت الهاتف . لا أدري في أي ساعة غفوت ، ولا أخمن كم هي الساعة الآن . أصبحت خارج الزمن كما أنا خارج المكان . لم تعد بوصلتي الزمنية مربوطة بقوانين الفلك ، فغفوتي ويقظتي رهن بعوامل خارج نطاقه ، مكالمات هاتفية ، مواعيد مستحيلة ، مطاردة من أطياف مختلفة ، طيفها وطيفها ، أمي البعيدة هناك وحبيبتي البعيدة هنا . ٨٠ كيلومترا تفصلني عن أمي ، وكلما سلكت دربا إليها تاهت العيس أو اعترضها لصوص الليل .

يا حادي العيس هيييييه
من بعيد بندهلك
روق خطاك شوي
درج على مهلك
بل تتركوني هون
لا تروحوا من دوني
قلبي أنا مشتاق
دمعي عمى عيوني

يا حادي العيس هيييييه

إمي بتستنى

بوس لي إيديها وطير

خدلا خبر عنا

قل لها بودي أجيك

وايش طالع بإيدي

سدوا طريقي بشوك

وغمر الأسى عيدي

يا حادي العيس هيييييه

ما فيه كرب بيدوم

بكره يزول الهم

مهما جفانا النوم

بكره يزول همي

وينور الحنون

وارجع أنا لمي

واترك عذابي هون

آه يا إمي ، أين هو «بكرة»؟ وهل تنتظريه؟ هل تنتظريني؟ هل ينتظرنا؟

وأنت أيتها الهاربة أبدا؟ هل علي أن أهرب أنا أيضا؟ هل هذا هو الحل؟ لكني حاولت ، وكلما هربت منك وجدتك قد سبقتيني إلى هناك .

أهرب منك إليك
أعانق طيفا يجوب الليالي
فيحصد من تلك وهما
ويقطف من هذي دمعة
يبحث عن شبه حضن
يبحث عن شبه حصن
يرد عن القلب سهما
يذود عن الروح لوعة
أهرب مني إلي
فأعثر دوما بظلي
وتنفر مني خطاي
أجوب المدى كي تطلي
من شرفة في سماي
أجوب المدى كي تظلي
سرابا ذرته يداي
فأين المفر، أجيبي!
أما من طريد سواك؟
أما من شريد سواي؟

أرفع سماعة الهاتف، على الناحية الأخرى صوت شقيقتي، متعب، حزين.

- شو الأخبار؟

- مش منيحة . إيمتى جاي؟

- ما بعرف ، بحاول أدخل تهريب ، حدا بدو يدخلني بسيارته إن شاء الله تزبط .

- إن شاء الله .

- كيف إمي؟

- زي ما هي . كل ساعة بحال . معظم وقتها في غيبوبة . صاحية ومفتحة عينيها ، وبتحكي ، بس مش واعية عاللي حواليها . حاول تيجي اليوم قبل بكرة ، بنضمنش القدر

«بنضمنش القدر!» هذا القدر ليس في صفي ، ليس في صفنا ، سد في وجهي جميع الأبواب . ودعت شقيقتي واتصلت بأمل .

- مالك منير؟ ليش صوتك حزين هيك؟

- أمل أنا في سباق مع القدر ، خايف ما ألحق إمي .

صمتت لحظة .

- إسمع ، الأحد القادم رح أوخذك ، مهما حصل ، حتى لو بقي جمال في البيت .

يا أمي انتظريني! أيها القدر ، تلكأ قليلا ، لا تسرع الخطى . أمهلها بضعة أيام أخرى . روحي لا تحتمل غصة أخرى . رحل والدي ولم أره ، ولم أشهد دفنه . رحل وتركني شريد الأقدار ، تطوحني الغربة من بلد إلى بلد . بكيته في غربتي وبقيت في روحي غصة ، ولم تبرأ . أيها القدر ، يكفيك! أخذت حصتي

من نذالتك ، إبحث عن غيري الآن ، إعبث بغيري .

نهضت من سريري بروح جديدة ، سحابة خفيفة من الأمل تظلل سمائي الآن . ثمة وعد لعله لا يجهض هذه المرة . يوم الأحد . تذكرت قصيدة محمود درويش :

«يوم الأحد
هو أول الأيام في التوراة ، لكن
الزمان يغير العادات ، إذ يرتاح
رب الحرب في يوم الأحد»

ليرتح رب الحرب إذن ، ليأخذ إجازة ، ليضاجع عشيقته أو يذهب مع كلابه إلى الصيد ، لكن ليتركني وحالي . يوم الأحد سأهادن الكون ، لا أريد حروبا مع أحد . أريد أن أصل إلى أمي قبل أن يصل إليها القدر ، ولكل الآلهة ما تشاء بعد ذلك .

يوم الأحد . سأراك يا أمي .

- ٢٠ -

أسلك أزقة الفيسبوك ، أتسكع في حواريها ، أتجنب فقط الزقاق المؤدي إلى جدارك . لا أريد أن أرى صورتك ، أتجنب الغواية ، ثم تنهار مقاومتي دفعة واحدة . أردت أن أكتب شيئا على حائطي ، ليس بالضرورة رسالة موجهة لك ، مجرد خواطر ، كانت الكتابة تريحني دائما ، ولكن حروفي صارت عاقرا ، وكأن اللغة انتحرت ، أو جف مدادي . صوتك الذي يصل إلى آذان الجميع ترف لا تجرؤ أذني على أن تحلم به ، لكن الفضاء الافتراضي نعمة . ألوذ بيوتيوب وأعود لمشاهدة مقابلاتك التلفزيونية ، بالصوت والصورة ، فلا تروي ظمئي ، بل تزيدني تعطشا للقاء . تلح علي فكرة جنونية ، ما الذي يمنعني من اللقاء؟ لماذا لا أقضي الليلة في أحضانك؟ أنا فتاة حرة . هم يلقنونني صباح مساء أنني أسيرة قوانينهم ، لكن روحي ترفض الانصياع . ولا يقف حراسهم أمام بابي ، فما الذي يمنعني من الهرب؟ ما الذي يلزمني بقوانين لا أنتمي إليها ولم يأخذ أحد يوما رأيي فيها؟

أخرج من غرفتي على أطراف أصابعي ، أقف أمام غرفة أختي ، أصيخ السمع ، لا صوت ولا حركة . لا بد أنها غارقة في أحلامها . أتوجه إلى غرفة نوم والدي . صمت مطبق ، حتى أني أسمع تردد أنفاسهما . أنظر إلى ساعتي . الثانية والربع فجرا . الرغبة تتفاقم ، تبسط سلطانها على الروح والجسد . الليل مملكة حرة ، لا تحكمها قوانين النهار . أعود إلى غرفتي . أخلع ثيابي وأدخل الحمام . أقف تحت الدوش وأحوك مؤامرتي الصغيرة بينما أغمض عيني وأستمتع بالمياه الساخنة تدغدغ رغباتي . أجفف جسدي وأرتدي ملابسي بسرعة ، أخرج من غرفتي على أطراف أصابعي . أبحث عن مفتاح الباب الخارجي . لا أجده في مكانه المعتاد عند المدخل . أجوب الصالون ، أبحث في كل ركن منه ، لا فائدة . أكاد أبكي من خيبة الأمل . ثم أجده فجأة ، معلقا على مسمار في المدخل .

أطفئ الضوء ، أفتح باب المدخل بهدوء تام ، وأغلقه ، أحاول أن لا أصدر أي صوت . أدير محرك سيارتي وأغادر . أنهب شوارع المدينة النائمة بسرعة جنونية ، أريد أن أصل إليه . إشارات المرور تتواطأ مع نواياي ، لم أتوقف عند أي منها ، فقد كانت خضراء بلا استثناء . أصل الفندق ، أتوقف أمامه . أدخل وأتوجه إلى الاستقبال ، علي إقناع الموظف بأن يعطيني مفتاح غرفة منير ، أتمنى أن لا يكون الموظف المناوب عربيا ، لأن

عقليته الشرقية قد لا تتقبل ما أنا مقدمة عليه . لا أحد يجلس على المكتب . أنادي . تخرج فتاة يهودية من إحدى الغرف الجانبية . أبتسم لها . أشرح لها الوضع ، أريد أن أفاجئ حبيبي في سريره . تبتسم بتواطؤ ، ثم تمد يدها إلى أحد أدراج المكتب وتخرج بطاقة إلكترونية ، تمدها لي وتغمز بعينها ، وتقول :

- إنبسطي .

كنت أراهن على التضامن الأنثوي ، وكسبت الرهان . أسرعت الخطى إلى المصعد ، كان في الانتظار ، دخلت ، ضغطت الزر وصعد بي إلى الطابق ١٤ ، فتحت الباب وتوجهت إلى الغرفة ، وضعت البطاقة فأصدر القفل الرنين المعتاد ، وفتح باب الغرفة ، دلفت بهدوء . كان مصباح النوم الخافت مضاء ، نظرت إلى وجهه ، بدا طفوليا في هدوئه وبراءته ، ابتسمت ، استمعت إلى تردد أنفاسه المنتظم ، خلعت البلوزة ، والسوتيان ، ومن ثم الجينز ، وتمددت إلى جانبه . اقتربت بشفتي من شفتيه ، وقبلته قبلة خاطفة . تململ . لم يفتح عينيه . نزلت بشفتي على عنقه . فتح عينيه ببطء ، رأيت الدهشة فيهما . وضعت سبابتي على شفتيه .

- شششششش .

- إنتي؟ شو جابك؟ كيف دخلتي؟

لم أعطه فرصة للاستمرار في فضوله ، أطبقت على شفتيه والتحمنا . نزعت عنه بيجامته بوحشية ، كدت أمزقها ، ثم

انصهرنا في أتون الرغبة . مزقنا سكون الليل بأصوات اللذة المتفجرة من حناجرنا متحدية كل نواميسهم .

حين بلغنا نهاية المعزوفة انهرت فوقه ، وكما في كل مرة ، انفجرت بالبكاء . مسح شعري بيديه ، ربت على ظهري ، قبل عيني وشفتي ، وحدة نشيجي تزداد .

- حبيبتي الناس نايمين .

اخترقت لتوي حصون العائلة والمجتمع والفندق ، فهل كنت لأكترث بخصوصية النزلاء الغارقين في سباتهم؟ . كنت أبكي بحرقة فاقت كل مرة . أحس بنشوة النصر ومرارة الهزيمة في آن . تحديتهم ، ووصلت إلى أحضانه ، لكني سأعود الآن صاغرة إلى سجني ، ولا أعرف شيئا عن خطواتي القادمة ، وإن كانت هذه الطفرة الجنونية ستتكرر ، وإن تكررت فإلى متى؟ هو سيسافر بعد أيام ، سيبتلعه الغياب ، وانا سأبقى هنا بدونه . أجتر الألم والذكريات . مستقبل قاتم ينتظرني ، ينتظرنا . حكايتنا ولدت ميتة ، أجهضها التاريخ منذ ما قبل البداية ، نحن هنا لا نملك حياة خاصة ، التاريخ لم يبلغ بنا هذه الدرجة من التطور الاجتماعي . نحن لا نعدو أن نكون تفاصيل في اللوحة الاجتماعية ، لنا أدوار مرسومة قبل أن نولد ، نلعبها من الولادة حتى الممات ، ولا يسمح لنا بالخروج عليها ، وإذا فعلنا حاصرنا الجميع : العائلة ، الجيران ، المجتمع . لا يسمحون لنا بالقفز فوق حواجزهم ، لا يغفرون الخروج على مسلماتهم .

أنظر إلى ساعتي ، تجاوزت الخامسة ، أنهض مرعوبة ، ارتدي ثيابي .

– وين؟

– حبيبي لازم أوصل البيت قبل ما يفيقوا ، إرجع نام ، بحكيك بعد الظهر .

أقبله ، وأخرج من الغرفة بخطوات سريعة . أعيد البطاقة إلى موظفة الاستقبال وأشكرها بحرارة ، تبتسم وتلوح لي .

أعود إلى البيت مسرعة وأعصابي تتوتر . والدي يفيق مبكرا لصلاة الفجر ، وفضيحتي شبه مؤكدة .

أصل البيت ، أفتح باب الحديقة وأنسل بهدوء ، أضع المفتاح في باب الشقة ، افتحه ببطء ، أدخل ، أتجه إلى السلم وأصعد باتجاه غرفتي .

– وين كنتي؟

يأتي صوته مجلجلا .

لا أجيب .

– سألتك وين كنتي .

ألوذ بالصمت وأتابع صعودي نحو غرفتي .

– تعالي هون .

يصرخ .

تستيقظ والدتي على صوت صراخه وتهرع إلينا .

– شو فيه؟ شو صار؟

- إساليها .

أنفجر بالبكاء .

تحتضنني أمي .

- شو فيه يا ماما؟

لا أجيب .

- بنتك قضت الليلة برة ، وهلا رجعت عالبيت

- صحيح يا ماما؟

تسألني وهي تحتضنني .

- أيوا دلعيها كمان .

- وين كنتي؟

تسألني . لا أجيب .

- يعني مش عارفة وين كانت؟ معه ، صاحبها اللي أكبر من أبوها .

يرتفع نشيجي .

- تعالي هون .

أتجه إليه مطأطأة الرأس .

- أقعدي .

أجلس على الصوفا مقابله ، وتجلس أمي إلى جانبي .

- من اليوم حتى يسافر ما في خروج من البيت ، لا ليل ولا نهار .

تحتج والدتي :

- وشغلها؟

- بيهمنيش ، تاخد إجازة .

أنهض فجأة ، وأركض نحو الدرج ، أصعده كالمجنونة ، أتجه إلى غرفتي ، أنهار على سريري ، وأتابع نشيجي الهستيري .

- ٢١ -

هذه البنت فاقت كل توقعاتي في جنونها . كنت أتلهف على لقائها لكن أحلامي لم تبلغ مستوى جنونها . أنتظر إشارة منها منذ غادرتني ، مكالمة ، رسالة على ماسينجر ، أي شيء . أريد الاطمئنان عليها . أنا في غاية القلق من أن تكون عائلتها اكتشفت خروجها الليلي . كانت مفاجأة لذيذة ، لكن ماذا بعد؟ لا أفق لكل هذا! هذه الطفرات الجنونية المسروقة في ليل المدينة لا يعول عليها . المستقبل الوحيد الممكن لعلاقتنا يجب أن يكون تحت الشمس ، أي رهنا برضى العائلة والمجتمع ، وهذا شبه مستحيل .

يرن هاتفي ، أخطفه بسرعة متلهفا لسماع صوتها .

- ألو .

- منير إمي توفت

يأتيني صوت أختي الباكي .

أنفجر بالبكاء .

- إيمتى؟

أسأل بصوت تخنقه نهنهاتي .

– من ساعتين وهي بتحكيش وطلبت الدكتور ومشى من ربع ساعة . أنا لحالي معها في البيت لسة ما حد بيعرف .

قالت ، وعادت للبكاء .

– طيب يختي أنا جاي ، رح آجي مهما حصل . ساعات بكون عندكم .

آه يا أمي ، بأي دمع أبكيك الآن؟ لماذا لم تنتظريني؟ لماذا؟ هل تعبت من الانتظار؟ ألم تستطيعي مقاومة القدر بضعة أيام أخرى؟

آه يا أمي . أنت ايضا ترحلين ، كما أبي ، ولا تجدينا حولك في لحظاتك الأخيرة ، نبكيك في الشتات ، ونشيعك في الغربة ، عن بعد . نناجي روحك عبر الحدود ، وندفن حزننا في صقيع المنافي . أيام قليلة كانت تفصلنا ، فلماذا تعجلت الرحيل؟ هل أدركك التعب؟ أم هو اليأس؟ ارتاحي الآن ، فقد أنهكتك رحلة الحياة . رحلت ، واستوطن غيابك الروح ، فنبتت فيها شجرة الأحزان . ستبقى تستقي من دموعي كلما داهمني الغياب . أمي! أفتقد صوتك وصمتك ، لحظات فرحك وقلقك ، رضاك وغضبك .أفتقد كياستك وقدرتك الفذة على احتضان الكون . أنجبت عشرا وتوجتيهم أمراء وأميرات في قلبك كلا على حدة . أي كيان هذا؟ عشر دورات فلكية ، تلتقطين اليد الصغيرة وتمضين بها عبر المسالك الوعرة ، تتعهدينها منذ نعومة الروح حتى ربيع الجسد ، سهرا وقلقا

وأماني . . ولا تنتهي الرحلة ، فالأمير والأميرة يؤسسان بدورهما ممالك وعصافير ، فيصبح العشرة عشرين ، ثم ثلاثين ، والروح تقاوم الإنهاك ، وتجدد الأغاني ، والخيال ينجب حكايات تتجدد دوما مع الفصول ، وتواكب المواسم الفتية . أمي ، لم تخبري غير مدرسة الحياة وكنت تجيدين لغات الأرض جميعا . تبتسمين بالإنجليزية والمجرية وتطبخين باللبناني وتحبين بلغات لم تخترع بعد . أمي ، كنت ، لا ، لم تكوني ، أنت ستبقين تشعين في سماء غربتي كما ابتسامتك في ربيع عمري . . أمي ، أمي . . . .

- ٢٢ -

هاتفت شقيقتي أستفسر عن موعد الدفن ، وأؤكد حضوري . كذلك سيحاول شقيقي سمير الحضور من عمان ، كما أخبرتني ، لذلك سيؤخرون موعد الدفن إلى ساعات النهار الأخيرة بانتظارنا .

لم أشأ ان أخبر صلاح والأصدقاء الآخرين في حيفا ، طالما أنني لن أمكث لاستقبالهم وتقبل العزاء . حاولت الاتصال بها ، كنت بحاجة إلى سماع صوتها في هذه اللحظات . كانت الطريق إليها مغلقة ، كالعادة بعد كل لقاء . ضاعف هذا من إحساسي بالوحدة في مواجهة حزني . اتصلت بأمل .

- مرحبا أمل .

لم يخف عليها الحزن والانكسار في صوتي .

- منير مالك؟ صار إشي جديد؟

- إمي توفت .

_لا!!!! لا!!!!!!

صرخت غير مصدقة على الناحية الأخرى .

- تأخرنا عليها ، أنا آسفة منير هاي غلطتي .

قلت مواسيا ، وأنا بحاجة لمن يواسيني : هاي مش غلطتك ولا غلطتي يا أمل ، غلطة القدر ، غلطة التاريخ ، غلطة أوباما ونتنياهو وديفيد كاميرون .

وانفجرت بالبكاء . يا إلهي كم بكيت في هذه الأيام الأخيرة . لم أذرف هذه الكمية من الدموع في حياتي .

- أنا جاية منير أقل من ساعة ونص بكون عندك .

- لا ما في ضرورة إذا مشغولة .

- شو مشغولة؟ أنا جاية ، ورح أوخدك تحضر الجنازة .

- وجمال؟

- بيهمنيش ، حضر حالك .

اتصلت مرة أخرى بشقيقتي أبلغها بموعد انطلاقي . قالت إن سمير أيضا في الطريق إلى الجسر . سيغيب اثنان فقط من إخوتي ، وهذا جيد . لم يحظ والدي بهذا الحضور من أبنائه وبناته ، ودعه معظمنا كل من غربته .

حزمت حقيبتي بسرعة وأخذت حماما ساخنا ، وأعددت نفسي للانطلاق . فوجئت بمكالمة من صلاح .

- العمر إلكم أخي منير ، أنا ساعة بكون عندك .

- الله يسلمك يا عزيزي ، بس إنت منين عرفت؟ ، لسة أنا من نص ساعة عارف .

- أصدقاءك من البلد بيعزوك على فيسبوك . إنتظرني ،

عندي ضيوف من القدس ، أول ما يغادروا أجيك . مش أكثر من ساعة .

شكرته ، وقلت له إنني سأغادر إلى البلد في الحال ، وإنني سألتقيه والأصدقاء الآخرين بعد عودتي .

سألني عن كيفية وصولي إلى البلد ، وعرض إيصالي إلى هناك ، قلت له إن الأمور مرتبة دون أن أطلعه على التفاصيل . نزلت إلى الاستقبال ، وأنهيت إجراءات المغادرة . بعد أن انتهيت توجهت إلى مقعد في الاستقبال . لم أنتظر طويلا ، فقد وصلت أمل . عانقتني بحرارة .

– انا آسفة منير .

– خلص أمل ، ما تظلي تتأسفي . مش غلطتك .

توجهنا إلى سيارتها ، وضعنا الحقيبة في الصندوق وانطلقنا .

– جمال في البيت؟

– لا ، حتى لو كان في البيت كنت رح آجي مهما حصل .

– تسلمي لي .

– رح نسير على أوتوستراد عابر إسرائيل ، مفروض نوصل بلدكم في أقل من ساعة . معظم الطريق بتكون عالأتوستراد وبعدين قبل طولكرم بننحرف باتجاه مستوطنة عناب .

– منيح ، يعني ممكن نوصل بحدود الظهر .

مكالمة أخيرة لشقيقتي أخبرها بانطلاقنا . أخبرتني بدورها أن أخي سمير قطع الجسر وهو الآن متجه إلى البلد ، أي سيكون هناك في خلال أقل من ساعتين .

كعادتي دائما بدأت أراقب الطريق خلفنا . في البداية لم ألحظ شيئا ، ثم ظهرت سيارة هايونداي فضية اللون . لم يكن سهلا معرفة ما إذا كانت تتبعنا أو أن وجودها على الطريق السريع مصادفة ، كغيرها من السيارات . كان بيننا وبينها حوالي ١٠ أمتار . لم أخبر أمل حتى لا أسبب لها الارتباك .

حين انحرفنا عن الطريق السريع تبعتنا السيارة . بقيت أراقبها دون ان أخبر أمل ، لكن حين بتنا على مسافة كيلومترات قليلة من عناب كان لا بد من تنبيهها .

– أمل في سيارة لاحقتنا من أول الطريق السريع .

– التيوتا البيضا اياها؟

سألت بخوف .

– لا هاي هايونداي فضية .

نظرت في المرآة برعب : هاي سيارة جمال

– جمال مراقبنا؟

– شكله هيك .

بدا القلق واضحا على أمل .

– شو بدو؟ ليش ما منعك توصليني لو عارف ومش موافق؟

- ما بعرف .

وصلنا معبر «جبارة» المحاذي للمستوطنة ، توقفت أمل ، وبعد قليل توقفت السيارة الفضية وترجل منها جمال .

- وين على باب الله؟

سأل بسخرية

- إمه لمنير توفت ، ورايح أوصله يحضر الجنازة .

قالت أمل بتحدي .

- وليش ما بتحكي؟

- عشان ما كنت رح توافق .

صرخ بها : يعني إذا ما بوافق بتروحي من ورا ظهري؟ قلت لك منير ممنوع يدخل الضفة ، ما بتستوعبي؟ بدك تخربي بيتي؟

كان يذكر اسمي ولا ينظر في عيني . ارتفعت وتيرة النقاش ، وتحول إلى عراك صوتي . تجمع الجنود حولنا . لا يبدو أنني سأحضر جنازة أمي ، فقد انكشفنا . خطفني حزني من المشهد للحظات ، ولم أدر إلا وجمال يصفع أمل بعنف . لم أطق المشهد وهجمت عليه أحاول تخليصها منه .

- إتركها! إتركها .

- تتدخلش إنت! كل المصايب منك .

وقفت بينهما لأحجزه عنها واشتبكنا بعراك بالأيدي .

ثم ، أحسست بضربة عنيفة من جسم صلب على مؤخرة

رأسي . لم أحس بأي ألم ، ولم أسقط على الأرض بل أسلمت ساقي للريح . بقيت أركض ولا أنظر خلفي . الغريب أنهم لم يطلقوا النار علي . تجاوزت الحاجز ، ولا عائق في طريقي . وصلت الشارع الرئيسي . الطريق خالية تماما . لا سيارات ولا ناس ، لا أحد في الطريق .حتى الحاجز على مدخل البلدة كان مهجورا ، وأنا أركض بخفة لم أعهدها في نفسي إلى أن وصلت الطريق المؤدي إلى بيتنا . الشوارع كلها خالية بشكل مريب . وصلت البيت ، طرقت الباب ، فتحه أحدهم ، دخلت ولكني لم أر أحدا . صعدت الدرج بسرعة باتجاه الشرفه .

– جيت يما؟

كان صوت أمي :

– جيت .

– مية مرحبا ، بس تأخرت يا حبيبي . استنيتك كثير .

– سامحيني يما ، مش بإيدي . وينهم يما؟

– روحوا يا حبيبي ، مشوا ، ما انتي تأخرت ، استنوك ، وبعدين راحوا كلهم .

– انتي وينك يما؟ مش شايفك!

– أنا هون يا حبيبي حواليك . تخافش يا حبيبي رح أظل حواليك . فوت جوا ، وين أغراضك؟

– معيش أغراض يما .

– كيف معكش يا حبيبي؟ بدكش ترجع عاد؟ خلص

بكفي غربة . لازم جبت أواعيك معك عالأقل . فوت هسة عند إخوتك وخواتك ، سلم عليهم يما . سلم عليهم يا حبيبي .
واختفى صوتها .
- يما تروحيش . يما وينك ، يما ، يما!
لا جواب .
دخلت البيت أبحث عن العائلة . طرقت باب الصالون . ما من مجيب . حاولت أن أفتحه لم أفلح . كان مغلقا من الداخل . طرقت بعنف . لا أحد يجيب .
- وينكم يا جماعة؟ سهى! منى! نجوى! سمير! فؤاد!
أصرخ ، أنادي إخوتي وأخواتي ، ولا أسمع إجابة . توجهت إلى النافذة ، نظرت عبر الزجاج . كانوا هناك ، جميعا ، يجلسون على الكراسي ويتحدثون . لا أحد ينظر باتجاهي . ألوح لهم ، أعاود الصراخ ، لا أحد! مرارتي تتفاقم . أعود إلى الشرفة . الأبواب مغلقة دوني . مكاني الشرفة . سأستوطن الشرفة . أحسست بتعب شديد . بحاجة إلى الراحة ، وربما النوم . نزلت الدرج ، توجهت إلى باب الحديقة . أحضرت إحدى الأرائك التي كنا نستخدمها للاسترخاء في شمس الربيع . وضعتها على الشرفة واستلقيت عليها . حاولت أن أغفو ، فلم أفلح . بقيت أغلق عيني وأحاول النوم ، ثم أعود فأفتحهما . أحسست بوحدة رهيبة . هل سأقضي العمر وحيدا على شرفة منزلنا؟ أرعبتني الفكرة . كررت محاولة النوم ، علني

أكون في حلم أو كابوس أستيقظ منه لأجد عائلتي حولي . أخيرا نجحت . غفوت لكني بقيت مفتوح العينين . ما الفائدة إذن؟ نهضت حزينا ، وأسلمت ساقي للريح ، لم أختر وجهتي . بدأت أعدو كيفما اتفق . الشوارع ما زالت خالية . وصلت حاجز المستوطنة ، هو أيضا مهجور . تابعت العدو باتجاه المعبر . أين ذهب الجنود؟ . رأيت حقيبة ملابسي ، لم أتوقف لالتقاطها . ما حاجتي بها؟ واصلت العدو بسرعة غير طبيعية . وصلت الفندق في حيفا . لم أدخله . تابعت عدوي في المدينة . توقفت أمام أحد البيوت . طرقت الباب . انتظرت ، لم يفتح لي أحد . طرقته مرة أخرى ، سمعت صوت طفلة . فتح الباب ، طالعني وجهها . ابتسمت لي .

– وين كنت؟ تأخرت يا بابا .

– شو إسمك إنتي؟

– حيفا .

انحنيت عليها وقبلتها .

أمسكت يدي ، قادتني إلى غرفة ، رأيت امرأة تجلس إلى مكتب وأمامها جهاز كمبيوتر ، تدير لي ظهرها .

– ماما إجا بابا .

لم تجب ، كأنها لم تسمع .

– ماما .

استدارت بوجهها نحونا ، رأتني ، مدت يدها ، مددت

يدي ، لم تلتقيا . اقتربت أكثر ، احتضنتها ، احتوتها ذراعاي ، لم أحس جسدها ، كنت أحتضن الهواء . بكيت . بحثت عن «حيفا» . لم تكن في الغرفة ، ناديت اسمها .

– حيفاااااا . حيفاااااااا .

لم أسمع سوى صدى صوتي .

رأيت بابا ، فتحته ، وجدت نفسي في باحة ، في الباحة شجرة زيتون كبيرة ، كبيرة جدا ، ساقها سميكة وفروعها كثيرة . كم عمرها يا ترى؟ حيفا تجلس على أحد أغصانها الكثيرة ، تقطف الثمار وتلقيها في سلة من الخوص .

– بابا تعال ، ساعدني ، لازم اليوم نخلص القطف ، وبكرة ناخد الزيتون عالمعصرة .

مددت يدي لألتقط الثمار فقبضت الهواء . سالت دموعي ، أدرت ظهري للشجرة وأطلقت ساقي للريح .

– بابا وين رايح؟ مين بدو يقطف معي؟ لازم نخلص اليوم ولا بيروح دورنا في المعصرة .

لم أستدر ، واصلت العدو بلا اتجاه محدد . الشوارع فارغة ، وصمتها مخيف . وصلت البحر .لم أتوقف عن العدو . بلغت الشاطئ على الناحية الأخرى ، ولم أتوقف . بقيت أعدو حتى وصلت باب بيتي في لندن . طرقت الباب ، لم يفتح لي أحد . بحثت عن المفتاح ، لم أجده . بدأت بالصراخ ، ناديت ابني وابنتي ، ولا من مجيب ، عدت لطرق الباب ، لا فائدة ، عدت

للصراخ . بقيت أصرخ حتى أحسست برأسي يكاد ينفجر . وضعت يدي على رأسي . آه يا راسي ، آه يا راسي .

- الحمد لله على سلامتك .

مألوف هذا الصوت .

حاولت أن أفتح عيني . واجهت صعوبة ، ثم نجحت أخيرا .

- الحمدلله ، الحمدلله .

نظرت إلى مصدر الصوت ، لم أر بوضوح .

- منير ، سامعني؟

تمتمت : مين إنتي؟

- أنا أمل .

_ انا وين؟

- في المستشفى .

- ليش؟

- خليك مرتاح ، بدي أنادي الدكتور .

خرجت من الغرفة ، وعادت ومعها طبيب وممرضة . كانوا يتحدثون بلغة لا أفهمها . جس نبضي ، قاس ضغطي ، وقال شيئا لم أفهمه ، بلغة غريبة ، ثم خرج .

- الحمدلله ، خرجت من الغيبوبة ، بدهن يعملوا لك فحص CT للدماغ ، وإن شاء الله كل شي بيكون تمام .

نظرت حولي ، وجدتني محاطا بالأجهزة والأنابيب .

بدأت أستعيد وعيي وقدرتي على الكلام تدريجيا .

- قديش إلي هون؟

- ٣ أيام .

- وين إحنا؟

- في تل أبيب . قلقت كثير عليك . كنت كل يوم أروح على بيت أهلي في حيفا المسا وأرجع الصبح ، وحالتك زي ما هي . الحمد لله على سلامتك .

- الله يسلمك . أنا كويس الآن ، بإمكانك ترجعي لبيتك ، بلاش تزعلي جمال .

أطرقت برأسها ولم تنطق .

- شو القصة .

- أنا تركت جمال .

- جد؟

سألت مصدوما .

- ما عاد إلنا حياة مع بعض . اللي بيمد إيدو علي بخرج من حياتي غير مأسوف عليه .

نظرت إليها بحزن : أنا آسف أمل .

- لا شو ذنبك إنت؟

- اللي حصل كان بسببي .

- اللي حصل كان رح يحصل يوما ما ، بسببك أو بسبب تاني ، كويس اللي حصل عالبكير وكشفه .

- رح تطلبي الطلاق؟

- طلبت الطلاق فعلا ، هو مش موافق لسة ، بس مش على خاطره .

جاء ممرضان ، أخذاني لإجراء فحص ال CT أستغرق حوالي نصف ساعة . كانت أمل إلى جانبي . عدت إلى الغرفة .

- رجعتي لبيت أهلك في حيفا؟

- رجعت طبعا ، من يوم الحادث ما رجعت على تل أبيب إلا عندك عالمستشفى .

- مين بيعرف عن اللي صار معي؟

- إجت أكم مكالمة على تلفونك .

- اتصل فيك صلاح ، حكيت له ، انصدم وقلق كثير عليك . كان كل يوم ييجي أو يتصل يسأل عنك . خلينا نتصل نطمنه .

اتصلنا بصلاح ، طمأنته عن وضعي . قال إنه سيأتي في الحال .فضلت أن ينتظر لحين اطلاع الطبيب على نتائج فحص الـCT واتخاذ قرار بشأن جاهزيتي للمغادرة ، اتفقنا على أن أتصل به .

- مين كمان اتصل؟

- اتصلت أختك ، ما حكيت لها شو صار . ما حبيت أشغل بالها قلت لها إنهم ما سمحوا لك تدخل وسفروك . ابقى اتصل فيها طمنها .

أحسست بالقلق ، لا بد أن أهلي مشغولون علي الآن ، ولا يفهمون سبب عدم اتصالي . حتى لو سفروني ، لماذا لم أتصل بهم من لندن؟

فضلت تأجيل الاتصال لحين وصولي الفندق ، حتى أتحدث معهم «على رواق» وأخفف وقع الصدمة عليهم .

– اتصل حدا كمان؟

– سلوى صاحبة منال .

– شو صار مع منال؟

– لسة تحت التحقيق ، ما حددوا موعد لمحاكمة ، المحامي حكى إنها ما اعترفت . يمكن تكون التهمة ملفقة .

– مين ملفقها يعني؟

– ما بعرف .

ساد صمت ، قطعته أمل :

– اتفقت مع سلوى إني أنضم إلهم . مش لازم المشروع يتوقف ، رح أحل محل منال حتى تخرج من السجن .

نظرت إليها وابتسمت بسعادة .

جاء الطبيب وأبلغني أن بإمكاني المغادرة . اتصلت بصلاح ، وصل خلال ساعتين وأعادني إلى الفندق . ودعت أمل في المستشفى واتفقنا على اللقاء في استقبال الفندق صباح الغد .

- ٢٣ -

رحلت أمي ولم أودعــهــا . أقـضي ليلتي الأولى في هذا العالم بدونها . للمرة الثانية أتجرع الشعور باليتم في الغربة . أنا الآن في السادسة والخمسين ، أسست عائلة منذ زمن ، أنجبت ابنا وابنة شبا بدورهما وبدآ يخطوان في دروب مستقلة عني ، لكن ارتباطي بعائلتي الأصل ، أمي وأبي وإخوتي وأخواتي ، لم يضعف . أحس الآن بالصقيع يقيم مهرجانا شتويا في حياتي ، يعقد حلقة دبكة شمالية مع الغربة ويدقان روحي المتعبة بخطواتهما .

أذكر تماما اللحظات التي قطعت الحياة فيها الحبل السري مع دفء العائلة للمرة الأولى . كانت الساعة الثانية فجرا ، الصمت يلف البلدة الغافية ، النوم يضع اللمسات الأخيرة في أحلام الفلاحين الذين سينهضون عما قريب ويتجهون إلى حقولهم ، ديوك الجيران بدأت تتململ قبل أن تنهض لتعلن بصياحها ميلاد الفجر ، وأنا أقف مع أمي وأبي على شرفة منزلنا بانتظار السيارة التي ستقلني إلى الجسر . كنت قد أنهيت الثانوية العامة وحصلت على قبول في جامعة عربية ، وأتأهب

للسفر والإقامة ، للمرة الأولى في حياتي ، في بلد غريب ، أعارك الحياة وحدي ، بعيدا عن حضن العائلة الدافئ .

- تفقدت جواز سفرك يابا؟

- مصاريك معك يما؟

أصواتهما الحانية تهزم لسعة البرد التي تهاجمني في الفجر . تهجم علي الغِربة دفعة واحدة ، أتخيل نفسي في مدينة غريبة بدونهما ، فتتدحرج دمعة على وجنتي ، أدير وجهي إلى الناحية الأخرى حتى لا يلحظاها . أنا الآن في عالم غريب ، أعارك الحياة بدونهما ، وتتدحرج الدمعة ذاتها على وجنتي .

أتجه إلى النافذة وأتامل الميناء ، والسفن المضاءة التي سيرحل بعضها عما قريب إلى موانئ غريبة . لست الغريب الوحيد في هذا العالم ، لكن كلا منا يعيش غربته وحيدا .

غدا سأفيق في الصباح ، سأستقبل المعزين في بهو الفندق ، وبيت أبي وأمي اللذين رحلا مفتوح على مصراعيه . إخواني وأخواتي يتقبلون العزاء هناك ، في صدر البيت الذي تتردد أصداء ذكرياتي في جنباته ، وأنا أستقبل المعزين هنا في بهو بارد ، في فندق غريب .

أهاتف شقيقتي ، أتحدث مع الجميع ، يحاولون رفع معنوياتي ، نتبادل الحسرات ، ثم أقفل الهاتف .

أضع رأسي على الوسادة ، أنام ليلتي الأولى يتيم الأبوين .

- ٢٤ -

استقبلت الأصدقاء مبكرا في بهو الفندق ، وتقبلت العزاء . أخبرتهم أنني سأغادر إلى لندن في صباح اليوم التالي . ودعوني وانصرفوا .

جاءت أمل . عانقتني طويلا . أحسست بشيء من الدفء . هذه المرأة وقفت إلى جانبي هنا في أصعب الظروف ، ومنحتني الكثير من الحب الذي افتقدته بغياب الحبيبة التي تتبخر بعد كل لقاء . هل عرفت يا ترى بفقداني؟ لا يمكن أن تكون عرفت واختارت الصمت والغياب . حسابها على فيسبوك ما زال مغلقا ، وهاتفها أيضا . لماذا يا سمر؟ لماذا؟ أحتاجك الآن أكثر من أي وقت مضى ، وأنت تغيبين في متاهات القبيلة . هزمتنا القبيلة يا حبيبتي ، أحنينا الرؤوس لقوانينها ، ها هم شيوخها يتحلقون حول النار ويقيمون شعائرهم الراقصة ، ونحن نختنق بخيبتنا في هذا الليل البارد . جنوننا وشبقنا وأحلامنا النافرة تسحق الآن بأقدامهم التي تدق الأرض في رقصات الظفر والنشوة ، ونحن نلوذ بالصمت والحيرة ، نعاشر هزيمتنا والوحدة ونرنو إلى اللاشيء .

– أي ساعة طيارتك بكرة؟

- الساعة وحدة بعد الظهر .

- طيب ، بمر عليك الساعة ٨ ، لازم تكون في المطار الساعة ١٠ على الأكثر .

شكرتها من الأعماق .

- إنتي شو صار معك؟

- ولا إشي لسة .

- شو حكوا الأهل؟

اكتسى وجهها بالحزن .

- غريبين أهلي .

- ليش؟ شو صار؟

- كنت مفكرة رح ينبسطوا ، عمرهن ما كانوا متحمسين لزواجنا .

- وشو موقفهم الآن؟

- مش مبسوطين . والله حيروني .

لا أستطيع التخلص من شعوري بالذنب بسبب أمل ، فقد حصل كل هذا بسببي . اعتذرت لها مرة أخرى .

- منير إنسى الموضوع رجاء . اللي حصل بيثبت إشي واحد : علاقتنا كانت هشة ، وكانت هاي المواجهة رح تحصل سواء بسببك أو بأي سبب تاني .

استدارت أمل وغادرتني ، خطت بضع خطوات وعادت فجأة .

- إيش فيه؟

- نسيت أحكيلك ، سلوى اتصلت . بدها تشوفك .

حاولت أن أتذكر ، لكنها لم تمهلني : صديقة منال .

- آه صحيح ، أنا كمان معني أشوفها ، بس مش خطر أرجع عاللد؟

- لا هي مش من اللد ، من قلنسوة في المثلث ، قالت ممكن تيجي المسا على حيفا تشوفك . شو أحكيلها؟

قلت بلا تردد : خليها تيجي .

بعد أن غادرتني أمل بقيت وحيدا .

حاولت الاتصال بها . هاتفها ما زال مغلقا . حسابها على فيسبوك مغلق أيضا . تغيب أياما ، أقلب الأمر على وجوهه ، أبدأ في توطين نفسي على خروجها من حياتي ، أخوض معارك قاسية مع قلبي النزق وروحي المارقة ثم ، حين أوشك على الانتصار ، تقتحم علينا ساحة المعركة وتحسم مسارها . هذه المرة يبدو الأمر مختلفا ، لدي شعور بأني لن أراها فأنا مسافر غدا . سأغادر وفي روحي غصتان .

أتوجه إلى البار ، وأغرق أحزاني في كؤوس الويسكي .

- ٢٥ -

كنت قد غفوت لفترة وجيزة ، بفعل الويسكي ، حين رن جرس الهاتف في الغرفة . كانت سلوى . غسلت وجهي وغادرت الغرفة .

قالت لي إنها تنتظرني في اللوبي . ذرعت اللوبي جيئة وذهابا ولم أر فتاة عربية تشبه سلوى التي رسمتها في مخيلتي . الفتاة العربية الوحيدة التي رأيتها جالسة تقرأ صحيفة عبرية كانت محجبة ، ترتدي جلبابا أسود يصل إلى قدميها . استبعدت أن تكون سلوى ، الناشطة .

ثم فجأة رفعت رأسها عن الصحيفة ونظرت إلي ، ركزت في وجهي قليلا ثم وقفت .

– أستاذ منير؟

– نعم .

– مرحبا ، ما خمنت ، شكلك مش عربي أبدا ، بس شايفتك بتروح وبتيجي قلت بتفتش على حدا ، قلت يمكن .

مددت يدي لمصافحتها ، سحبت يدها ووضعتها على صدرها :

– آسفة ، بصافحش رجال .

لا أستطيع وصف الصدمة التي أصابتني ، ولا بد أن وجهي امتقع ، فقد رأيت الارتباك باديا عليها بتأثير رد فعلي .

حاولت استعادة كياستي :

- أنا آسف ، تفضلي

جلسنا إلى المائدة نفسها التي كانت تجلس إليها .

- شو تشربي؟

- لا ولا شي ، شكرا .

- شو أخبار منال؟

- بخير ، ما اعترفت ، والمحامي متفائل .

ضبطتني أحدق في جلبابها على ما يبدو ، مع أني حاولت أن لا أفعل ، نظرت إلي متحفزة ، وانفجرت دفعة واحدة :

- إسمع أستاذ منير ، ما تتلصص هيك من تحت لتحت ، إحكي اللي ببالك ، ما عندي مشكلة .

حاولت الاعتذار لها .

- لا ما في داعي للاعتذار ، واضح إنه إشي بيحوس جواتك .

ترددت قليلا ، ثم حسمت أمري :

- أحكيلك بصراحة؟

- بمنتهى الصراحة .

- مش موضوع الحجاب ، ولا موضوع الجلباب اللي محيرني ، ولا حتى موضوع إنك ما صافحتيني ، وحسستيني

بحالي متهم بإنسانيتي وحضاريتي .

قاطعتني قائلة بحدة : أنا رح أرد على كل هالحكي ، بس كمل ، قل لي شو إذن اللي محيرك .

- اللي محيرني إنك ناشطة نسوية ، هذا الانطباع اللي أخذته عن منال ، وافترضت إنك قريبة منها فكريا .

- وافتراضك في محله .

لم أصدق أذني .

- كيف هيك؟ مش حاسة بتناقض؟ يعني إنتي بتشاركي في نشاطات تدافع عن حقوق المرأة ، وبتحطي راسك تحت السكين طوعا ؟!

لم يعجبها .

- إنت كمان فاجأتني أستاذ منير .

- بشو فاجأتك؟

- وما كنت متوقعة إنك تسطح الأمور بهالشكل ، إنت كاتب ، ومفروض تشوف الأمور بشكل أعمق من هيك .

أحسست بأنني ربما كنت حادا معها أكثر مما يجب ، وأعجبتني حدتها في الرد .

- تابعي ، عم بسمعك .

زفرت .

- مالك؟

- نرفزتني يا زلمي . إطلب لي بيرة لو سمحت .

هذه المفاجاة كانت من عيار أثقل من سابقتها .

نظرت إليها ثم ، لسبب أجهله ، انفجرت بالضحك . انتقلت عدوى الضحك إليها . حين هدأنا وقفت واتجهت إلى البار . أحضرت زجاجتي بيرة «هاينيكان» .

- تفضلي .

_ شكرا .

سكبت البيرة في كوبها بشكل احترافي ، لم تدلق قطرة واحدة .

رفعت كأسها وقالت : بصحتك .

رفعته بدوري وقلت : بصحتك وبصحة مفاجآتك .

- إنت زرت قرى هون في الداخل؟

- زرت طبعا .

- أي قرى؟

- زرت مجد الكروم ، دالية الكرمل ، طرعان .

قاطعتني : وهذا سبب جهلك بواقعنا .

ثم ، بسرعة ، قالت متداركة : آسفة ، إعذرني على حدتي ، أخرجتني عن طوري .

ابتسمت لها وقلت : ولا يهمك ، تابعي .

- هاي القرى كلها مختلطة ، فيها أكثر من طائفة . أنا ساكنة في قلنسوة ، هاي بلد في المثلث الجنوبي ، كل سكانها مسلمين ، ولا حدا منهم من أي ديانة أخرى . القرى اللي زرتها

فيها مسيحيين ، دروز ، وقريبة من حيفا اللي هي مدينة مختلطة ، أشكال وألوان . . إحنا لون واحد ، منغلقين على أنفسنا وحاسين بتهديد .

- من ثقافة المجتمع الآخر ، اليهودي ، الأوروبي ، صح؟

فهمت ، ولا أدري كيف غاب عني ذلك . كل الفلسطينيين أحسوا بقلق على هويتهم القومية والدينية بعد النكبة ، وهذا يفسر تشبثهم باللهجة الفلسطينية القديمة . لاحظت أن سلوى تستخدم تعبيرات كنت أسمعها في طفولتي ، لكن الأجيال الجديدة لم تعد تفهمها . في قلنسوة والطيبة ما زالوا يستخدمونها . الانغلاق هو رد الفعل الطبيعي حين يغزوك الآخر ، الرد الطبيعي الآخر هو العكس تماما : أن تتماهى مع ثقافته ، وتضيع ملامح هويتك الثقافية بشكل تام تقريبا . هذا خبرته في لواء الإسكندرون الذي سلخ بعد الحرب العالمية الأولى عن سوريا وضم إلى تركيا . بعض السكان ، خاصة المسنين أو الكهول ، يتحدثون العربية بلهجة سورية تشوبها لكنة تركية ، لكن أبناء الأجيال الجديدة يعتبرون أنفسهم أتراكا . اذكر أني التقيت أحدهم أثناء دراستي في أنقرة ، سخر مني حين استغربت من عدم تحدثه العربية رغم كونها «سوريا» . قال لي إنه تركي .

- طيب مفهوم يا سلوى ، أهل بلدك بيحاولوا يتمسكوا بالهوية ، ليش أنا مفكرتيني مثلا مولود في أوروبا؟ الناس اللي مثلي ومثلك

بيشكلوا هويتهم الفكرية وما بيتقيدوا تماما بالسائد اجتماعيا .

قاطعتني : إنت رجل أستاذ منير ، بالنسبة إلك الموضوع أسهل . أنا بحاول ، بس الضغط العائلي قوي ، يعني أنا في أفكاري مش محجبة ولا أرتدي جلباب وممكن أصافحك مع بوسة كمان .

قرعت كأسها وعدنا للضحك .

- لكن قشور المظهر ما بقدر أتخلص منها بسهولة ، أنا من عائلة محافظة جدا ، متدينة جدا . لو أعيش خارج البلد بأكد لك الموضوع ما رح يوخذ مني شهور ، رح تلاقيني بشكل مختلف تماما .

بقينا نتحدث لأكثر من ساعتين ، وذاب الجليد الذي ساد محادثتنا في البداية ، ذاب تماما ، وحل محله شعور دافئ . أحسست أننا ، وبرغم الخلافات المظهرية ، ننتمي إلى العالم نفسه .

حين ودعتني سلوى لم أمد يدي لمصافحتها ، لكني فوجئت بها تحتضنني بحميمية . كان تأثير الحديث الرفاقي الدافئ واضحا ، ولا بد أن البيرة ، التي شربنا منها ثلاث زجاجات ، قد ساعدت على تحرير وعيها مما جثم عليه من إرهاب العائلة والمجتمع . حين أطلقتني ، نظرت في عيني وقالت بود : توصل بالسلامة .

- الله يسلمك . إنتبهي على حالك سلوى ، وسلميلي على منال .

- ٢٦ -

نعم ، فعلتها مرة أخرى . . . بقيت أقترب من الوهج بخطى حثيثة وأنا أدرك أن اللحظة قادمة ، أقترب واللهب يلسعني . . . خطوة أخرى ، قطرة أخرى ، خيبة أخرى . . .أماطل نفسي وقوانين الأزل ، لعل شيئا يحدث في اللحظة الأخيرة فيحيل النار بردا وسلاما . أصالح الآلهة ، عل معجزاتها التي غربتني تنتشلني في اللحظة الأخيرة من لجة الضياع . أعدك ، كما في كل مرة ، ولا أكذب ، لا عليك ولا على نفسي . أنا امرأة عاشقة ، إذن أنا أسيرة الوهم ، وأبقى أتخبط فيه حتى لحظة الارتطام المدوي . وفي كل مرة أعد نفسي بأني لن أكرر اللعبة ، وفي كل مرة أظن أنك لن تعيدني إلى ملكوت قلبك ، وفي كل مرة نكتشف كم كنا واهمين حين ظننا أننا قادران على الانحياز للعقل .

طال الصمت بيننا هذه المرة ، لكن لا تسألني فلست أملك إجابة . سأتفهم لو أدرت لي ظهرك حين أستنفد آخر رمق في مقاومتي وأندفع كالمجنونة ، مرة أخرى ، في أحضانك . . . سأتفهم لو فعلت ، لكني أعرفك ، وأراهن على جنونك . . .

-٢٧-

حسمت أمري . سأرحل معه . حجزت مقعدا على الطائرة نفسها التي ستقله ، لكني لن أخبره بذلك الآن . ستكون مفاجأة . سنلتقي في صالة المطار الداخلية . لم أفكر كثيرا بالتفاصيل . التفكير عدو الحب في هذا الموقف . سأتبع جنوني بلا أدنى تردد . لا أدري كيف سيكون رد فعله حين يراني . هو الآن يعتقد أنني خذلته ، وربما كرهني ، لكن لا يهم . ستذوب مشاعر الكراهية في لحظات حين أحتويه بذراعي . صديقتي مها هي الوحيدة التي تعرف بخطتي ، هي شريكتي الوحيدة في جنونياتي ، كما أنا شريكتها . نحوك مؤامراتنا الصغيرة معا . حين ترغب بقضاء أيام مع صديقها تقول لعائلتها إننا سنسافر سويا ، ونسافر فعلا ، ونحجز غرفتين في الفندق ، واحدة لي وأخرى لها مع صديقها . لم تجادلني ولم تحاول أن تعيدني إلى صوابي . اتفقنا على أن تنتظرني بسيارتها في ساعة مبكرة ، والعائلة تغط في النوم . هم يقفلون باب الشقة ويخفون المفتاح . والدي أصبح أكثر حرصا ، لكن متى كان السجان أذكى من السجين؟ لدي نسخة من المفتاح كنت قد

أخفيتها منذ وجدت مشقة في العثور عليه في المرة الماضية .

تصلني رسالة نصية من مها ، تقول إنها غادرت المنزل وستصلني خلال أقل من ربع ساعة . أرتدي حذائي ، وأحمل حقيبة يدي ، وفيها جواز سفري ، وأنزل الدرج على رؤوس أصابعي .لا أحمل حقيبة ملابس ، سأترك ملابسي هنا ، وفصول حياتي الماضية . سأولد من جديد .

البيت يلفه السكون . أصل إلى الردهة في الدور الأرضي . أحس بجفاف في حلقي . أدخل المطبخ لأحضر زجاجة ماء .

- شو مصحيكي بكير يا ماما؟

لا! لا! لا!

لا يمكن! إبعدوا عن طريقي! إتركوني!

وأنفجر في بكاء هستيري!

تحتضنني أمي .

- ما لك يا حبيبتي؟ اسم الله عليكي!

-إتركيني ، إتركيني!

أصرخ بقسوة لم تعتدها مني .

كشفت خطتي! سد الطريق في وجهي الآن .

يهرع أبي وشقيقتي سحر إلى المطبخ .

- مالها هاي المجنونة؟

- مش عـارفـة . دخلت المطبخ ، وأول مـا شـافـتني صـارت تبكي وتصرخ .

أختـي سحـر تنظر إلي بحـزن . أتركـهم في المطبخ وأفـر إلى غـرفـتي ، أريد أن أكـون وحـيـدة مع هزيمتي . خـسـرت الجـولة الأخيـرة لتوي . تلحق بي سمـر ، أصل باب الغـرفة وأقـفله في وجهها ، ثم أغلقه من الداخل بالمفتاح .

- سمر ، إفتحيلي . سمر ، سمر .

ترجوني بصوت باك ، وأنا لا أجيب . أتكوم على سريري . أحـاول التـفكيـر بهرب . أنا أجبن من أن أقـدم على الانتـحـار ، لكني سأقدم على أقسى اشكاله .

سـأقتله وأقـتل نفسي وأجـتث من روحـه كل أثر للحب . سـأجـعله يكرهني ، أليـسـت الكراهيـة نقـيض الحب وشـفـاء العـاشق؟ لا يسـتـحق كل هذا الحـزن الذي سـببـتـه لـه . ربما لو كرهني لخفف ذلك من حزنه .

خذ إذن يا حبيبي . هل أنت جاهز؟

آن الأوان لأن نضع نهـاية هوليـوودية لهـذا الجنون . أعـرف كم تـكره هوليـوود وأفـلامـهـا ونهـاياتها الميلودرامـيـة البـائسـة ، ستكرهني بقدر ما تكرهها .

أفـتح اللاب توب ، أدخل إلى الماسـينجـر وأبدأ بكتـابة النهاية .

«سـتـصـدمك هذه الرسـالة ، أعـرف ذلك ، لكنك ذكي ،

ويفترض أن لا تصدمك . خلفك ما يكفي من التجارب لتثور في داخلك بعض الشكوك ، فلماذا بقيت على يقينك؟ هل فعلا صدقت أنني أحببتك؟ ليست هناك معجزات رومانسية في عصر الاستهلاك والسلع ، ألست من يطلق عليه هذا الاسم؟ ستتشكك في كلماتي في البداية ، ستستعيد لحظاتنا الحميمة ، بكائي الصادق ، لذتي المجنونة . لم أكن أمثل كل هذا! كنت صادقة حتى النخاع . لكني لم أكن أحبك! اكتشفت هذا لاحقا . كنت مبهورة بك . نعم ، أعشق كتاباتك ، جنونك ، فوضاك ، لكن هذا كل ما هنالك . . . «هي لا تحبك أنت يعجبها مجازك»! تذكر صاحبك الشاعر الذكي الذي أدرك هذا في قصة مشابهة لا بد أنه مر بها . أعجبت بك ، بهرت ، كان لا بد أن أتذوق اللذة معك . كان عندي فضول قاتل ، هذا كل ما هنالك ، ثم بدأت أجري حساباتي . هل هذا الفضول ، هذا الإعجاب ، هذه الإثارة تساوي الثمن الذي يترتب علي أن أدفعه؟ هل أفقد عائلتي ثمنا لها؟ أنت لن تستطيع البقاء هنا ، ولو بقيت فلن تتقبلك عائلتي ، وأنا لا يمكن أن أرحل عن حيفاي ، الأفق مسدود كما ترى . كنت أنانية؟ أعترف بذلك ، لكن قلبك كبير وسيغفر لي . .

(أنا لا أحبك أنت ، يعجبني مجازك)

توصل بالسلامة .

قرأت الرسالة ورفضت توقيعها . لن أستطيع أن أذيل كل

هذه الأكاذيب باسمي .

والآن علي أن أرسلها وأسدل الستارة على الفصل الأجمل في حياتي .

تتجمد يدي على مفاتيح اللاب توب وأجهش ببكاء مر . أختي سحر تطرق الباب بجنون . أضغط زر الإرسال وأقذف اللاب توب نحو الحائط . أبدأ بضرب رأسي بالجدار في الوقت الذي تنجح فيه سحر بمساعدة والدي في خلع الباب والدخول إلى الغرفة .

-٨٢-

أجلس في بهو الفندق بانتظار أمل . لم أنم ليلة البارحة . بقيت أتقلب في سريري حتى أولى ساعات الفجر ثم نهضت وخرجت من الفندق . نزلت إلى وسط المدينة مشيا على الأقدام . تسكعت في ساحة باريس المهجورة في ساعات الصباح الأولى ، ودعت الميناء ، ثم عدت إلى محطة المترو . حين وصل أول قطار صعدت إليه وعدت إلى الفندق . طلبت فنجان قهوة ، احتسيته على مهل ثم صعدت إلى غرفتي . أعددت حقيبتي ، أخذت حماما ساخنا وغادرت غرفتي إلى الاستقبال لانتظار أمل .

لا أستطيع وصف حالتي الراهنة : فقدت أمي وحبيبتي ، دخلت هذه المدينة مفعما بالفرح والاحتمالات : أمسيات ، لقاءات مع الجمهور والمحبين ، لقاء الوالدة . . . وها أنا أعود وقد تكللت روحي بالفقدان والهزائم . هزمني الموت وشيوخ عبس .

صوت الهاتف ينبئ بوصول رسالة على الماسينجر . أمد يدا

مرتجفة إلى جيبي وأخرجه بلهفة . رسالة منها . أفتحها ودقات قلبي تتسارع بجنون .

اقرأ أولى الكلمات ، وأنهار . . . . أكمل الرسالة ، وابدأ بالصراخ .

لاااااااا . . . . .

يشق صراخي بهو الفندق . لا ألقي بالا إلى الموظفين والنزلاء الذين بدأو ينظرون إلي مصدومين . لا أدري ماذا أفعل . أنهض وأركض باتجاه الباب ، فأصطدم بأمل .

- مالك شو فيه؟

تسألني مصدومة . لا أجيب .

- منير ، شو صار؟ وين رايح بتركض؟ ليش وجهك أصفر هيك؟

ماذا أجيبها الآن؟ كيف أسرد قصتنا من الدهشة الأولى إلى الخيبة الأخيرة في ساعة؟

أحاول التماسك .

- منير مالك؟

- ولا إشي أمل ، ولا إشي .

أجيبها بصوت مرتجف .

- كيف ولا إشي؟ كل جسمك بيرتجف ووجهك أصفر .

– قصة طويلة ، ما معنا وقت أرويها ، خلينا ننطلق بلاش أتأخر عالطيارة .

– طيب إحكيلي يمكن ترتاح . بقدر أعمل إشي؟

– إنتي عملتي كتير الله يخليلي ياكي . خليني أجيب شنطتي . استنيني .

انطلقنا نحو المطار . كنت صامتا طوال الطريق . كانت أمل تتأمل وجهي بحزن بين الفترة والأخرى ، ثم تعود للتركيز في الطريق أمامنا .

خرجنا من حيفا . لوحت من بعيد للبحر والكرمل وساحة باريس ، ولخيبتي التي خلفت فصلها الأخير على قمة الكرمل وحملت أوجاعها في ثنايا الروح .

التحقيق الأمني المعهود قبل المغادرة . كنت أجيب عن الأسئلة بروتينية حين لمحته . كان متوجها إلي . ماذا يريد؟ نظرت إليه بتحد . ناداني باسمي . أخذ جواز سفري من ضابط الأمن واقتادني باتجاه البوابة .

– كان مفروض تكون تحت التحقيق الآن ، بس أنا سلكت الأمور .

– تحقيق في شو؟

– ولو! شو ناسي؟ زيارتك للد ، موعد مع متهمة بالانتماء للجبهة الشعبية ، محاولة دخول الضفة الغربية بدون تصريح .

– آه يخلف عليك ، وإيش الثمن اللي بتطلبه؟

- تكون هاي زيارتك الأخيرة للبلاد .

- إعتقلني إذا بدك ، بس انا راجع عالبلاد .

- لا مش رح أعتقلك ، بس ليش بدك ترجع؟ الوالدة الله يرحمها ، حبيبتك تركتك ، ومنال بإيدينا .

نظرت إليه وابتسامة شريرة على شفتي ، وقلت بخبث :

- بس أمل مش في إيديكم ، أمل حرة .

أصاب السهم مقصده ، ركز نظرات مشبعة بالكراهية في وجهي ، هم بقول شيء ما ، ثم غير رأيه . هز رأسه بصمت . ختم جواز سفري وقال :

- مع السلامة أستاذ منير .

أعاد لي جواز السفر . أدرت له ظهري واتجهت نحو البوابة دون كلمة واحدة .

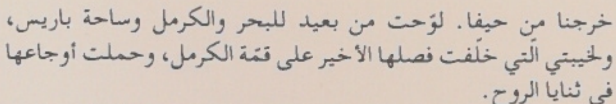
حين اتخذت مقعدي في الطائرة تفقدت الختم في جواز سفري . كما توقعت ، كان هناك حظر بالعودة عن طريق مطار بن غوريون .

أعدته إلى حقيبتي الصغيرة ، وتفقدت التصريح الذي يتيح لي دخول البلاد عن طريق الجسر . كان هناك ، في الحقيبة .

تمت- لندن في ٣٠ تموز ٢٠١٥

BEWILDERED TASTE OF PASSION



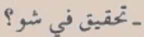


والتيه والزيتون

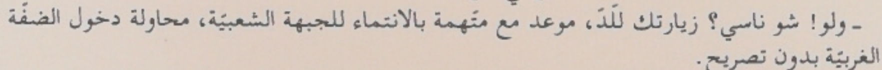
خرجنا من حيفا. لوّحت من بعيد للبحر والكرمل وساحة باريس، ولخيبتي التي خلّفت فصلها الأخير على قمّة الكرمل، وحملت أوجاعها في ثنايا الروح.

التحقيق الأمنيّ المعهود قبل المغادرة. كنت أجيب على الأسئلة بروتينيّة حين لمحته. كان متوجّهًا إليّ. ماذا يريد؟ نظرت إليه بتحدٍّ. ناداني باسمي. أخذ جواز سفري من ضابط الأمن واقتادني باتّجاه البوّابة.

- كان مفروض تكون تحت التحقيق الآن، بس أنا سلّكت الأمور.



- تحقيق في شو؟



- ولو! شو ناسي؟ زيارتك للّدّ، موعد مع متّهمة بالانتماء للجبهة الشعبيّة، محاولة دخول الضفّة الغربيّة بدون تصريح.

- آه يخلف عليك، وأيش الثمن اللي بتطلبه؟

- تكون هاي زيارتك الأخيرة للبلاد.

- اعتقلني إذا بدّك، بسّ أنا راجع عالبلاد.

- لا مش راح أعتقلك، بسّ ليش بدّك ترجع؟ الوالدة الله يرحمها، حبيبتك تركتك، ومنال بأيدينا.

نظرت إليه وابتسامة شرّيرة على شفتيّ، وقلت بخبث:

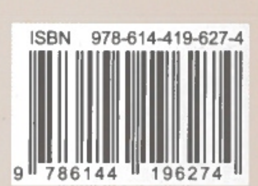
- بس أمل مش في أيديكم. أمل حرّة.

أصاب السهم مقصده. ركّز نظرات مشبعة بالكراهية في وجهي، همّ بقول شيء ما، ثمّ غيّر رأيه. هزّ رأسه بصمت. ختم جواز سفري، وقال:

- مع السلامة أستاذ منير.



info@kol-shee.com
www.kol-shee.com



ISBN 978-614-419-627-4

